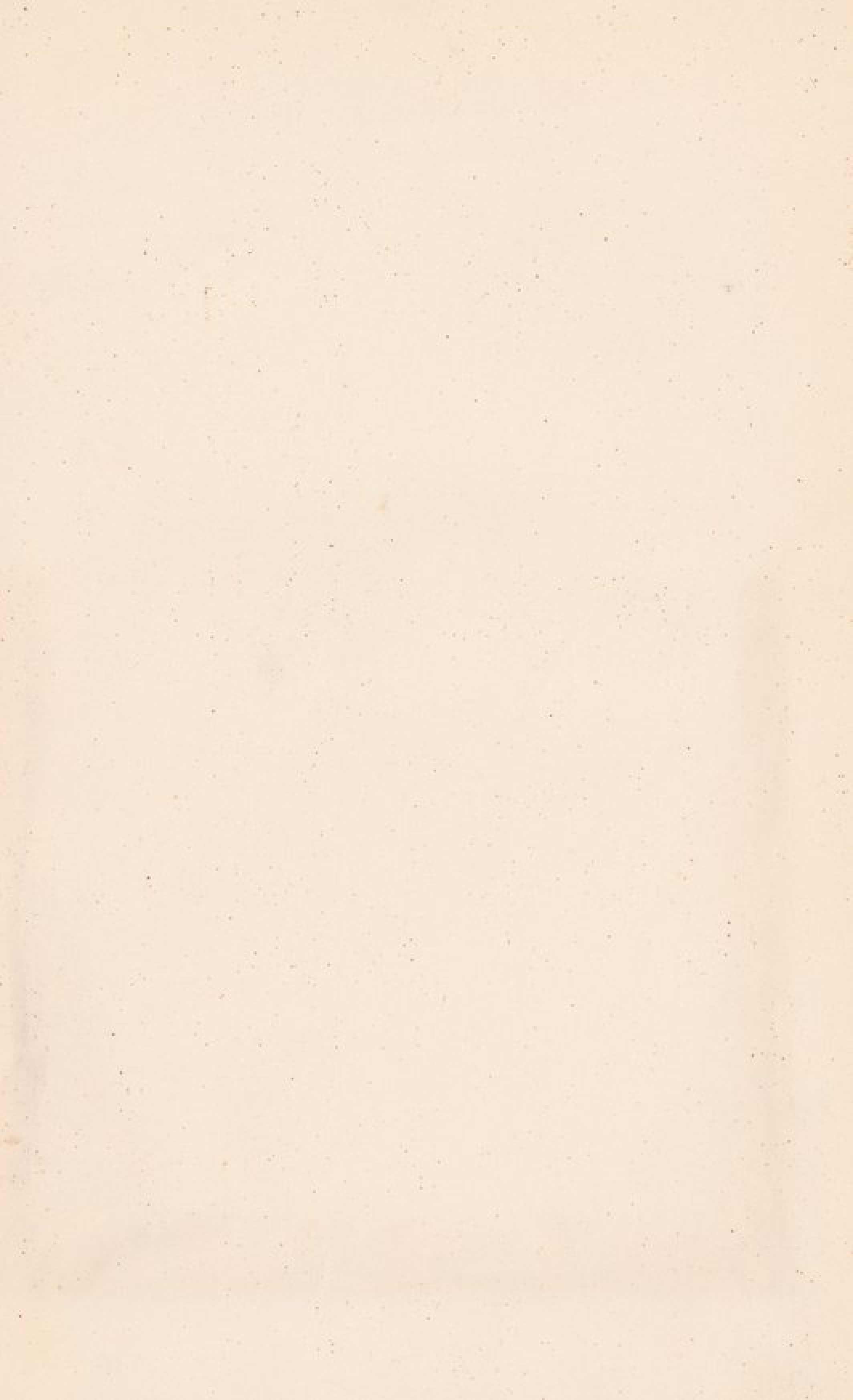
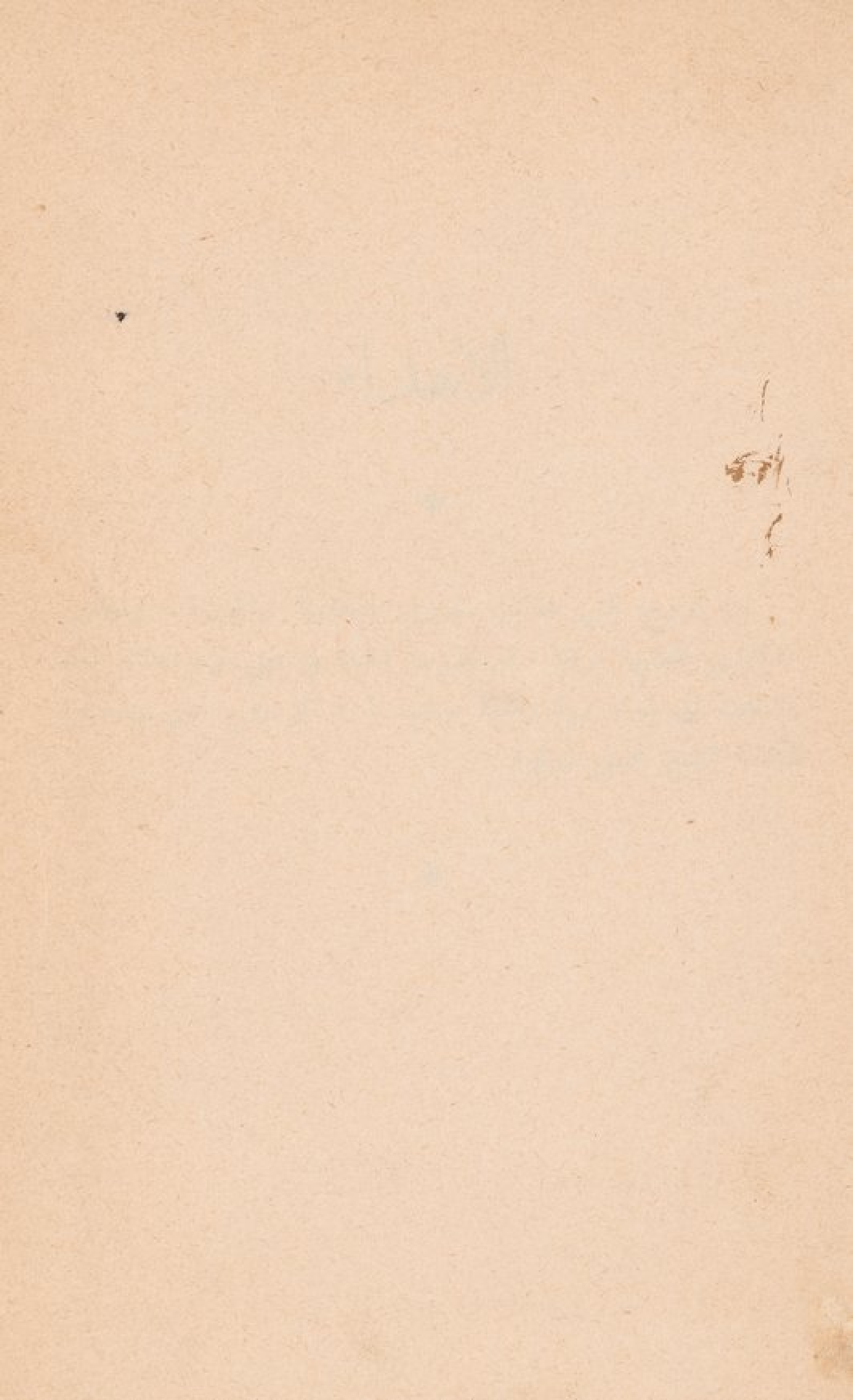






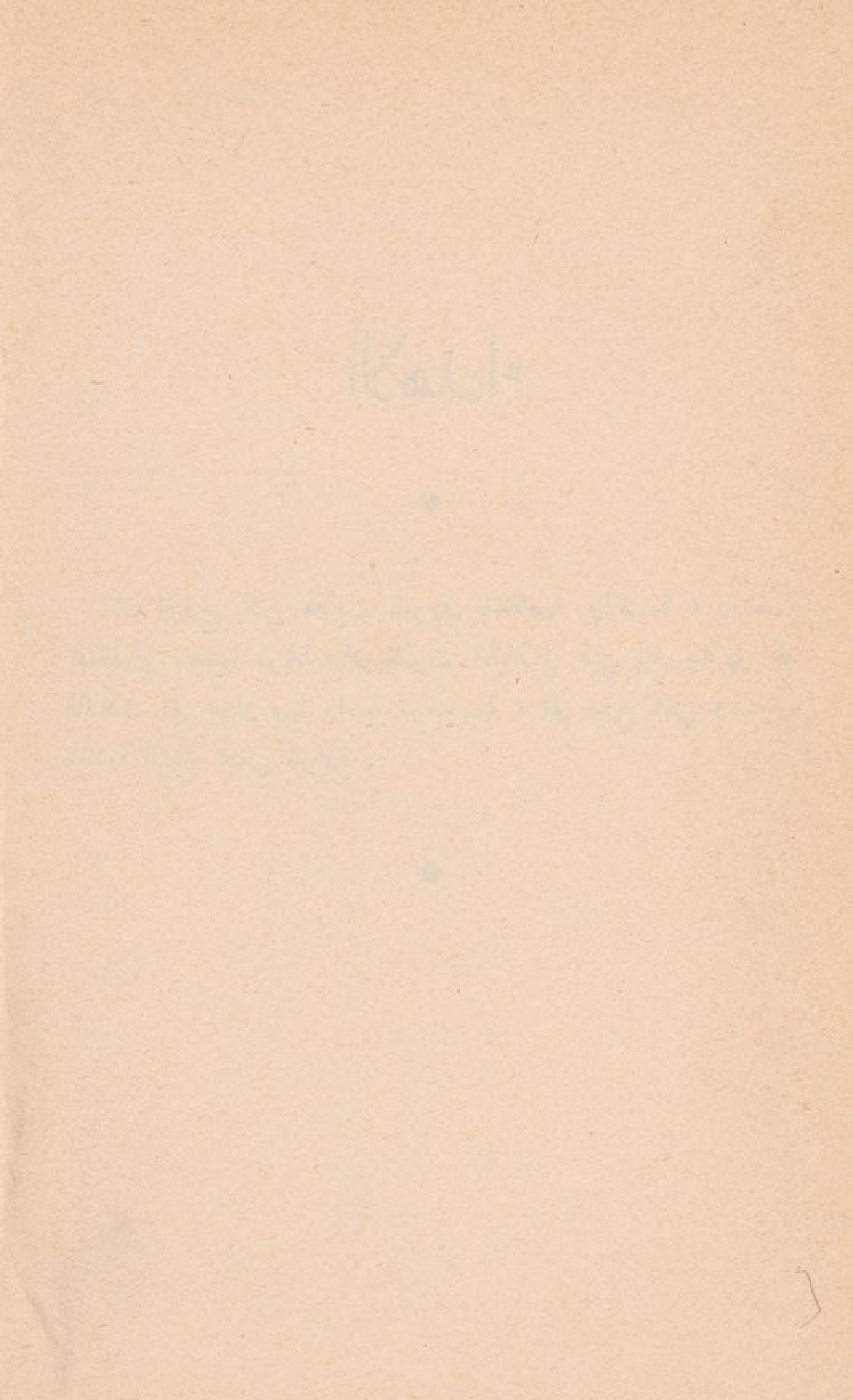


الاهداء

•

ان الروح التي هذّبت شعوري باخلاصها واثقـــة ، وايقضت افكاري بتجنيها مرتابة ، ثم حقّرت الحياة في عيني يوم جدّبها الحد فانتقلت الى جوار ربها راضية مرضيـــة ، الى روح اخي وصديقي العلامة الشيخ محسن شرارة .

•



لمجلة الأبحاث الغراء مع خالص
الاحترام والتقدير من المؤلف
علي الزين ٨/١٢/١٩٥٥

الجزء الأول

أوراق أديب

دراسة ونقد وتوجيه نحو الأدب الخالد بروحه
وفنه وصوره المتألقة وأفكاره الحرة

علي الزين

دار الفكر : بيروت : ص.ب ٣١٩٨



التصدير

.. كل ابناء مهنة او فن لهم حين يجتمعون حديثهم الخاص فيما يلابسونه ويمارسونه : فالتجار في نواديهم الخاصة يتناجون ويستعرضون انواع التجارة الجيد منهـا والرديء ، واساليب البيع والشراء ، ثم التجار انفسهم الخبير وغير الخبير والامين وغـير الامين والصادق وغير الصادق .

والفلاحون في سمرهم يتحدثون عن الارض وانواعها وعن الشجر والنبات وضروبها ، وعن الحبوب والاثمار واقسامها ، وعن اساليب الزرع والحصاد وآلاتها واوقاتها ، ثم عـن الجيد والرديء والنافع والضار من هذا كله .

وكذلك الادباء والمفكرون والطامحون الى الاصلاح لا يختلف شأنهم عن شأن غيرهم من الناس حين يفرغون من الدرس والمطالعة والاعمال الفكرية وينصرفون الى موضع ثقتهم واكبارهم من الاصدقاء والزملاء الذين ألف بينهم الذوق والفكر والهدف ، كل منهم يعرض

ما قد انشأ من القصص والمقالات والقصائد ، او يعلق على ما قرأه من الكتب والصحف ، او يصف بعض ما لابسه مـــن الحوادث والمظاهر والحالات النفسية والاجتماعية ، او مـن خالطهم من العلماء والادباء والفنانين والساسة، وكل منهم يبدي ملاحظاته وآراءه وحججه فيما يصوّبه ويخطئه وفيما يستحسنه ويستقبحه وفيما يكبره ويحتقره او يكره ويحبه .

ولا ابالغ اذا قلت انه على مثل هذا كانت نشأتي فيمن نشأت بينهم من الادباء والعلماء والطامحين ، وان مجالسنا كانت — فيما مضى من ايام العراق وجبل عامل — عبارة عن تصوير وتحليل ونقد صريح لا تشوبه شائبة من رهبة او رغبة او مجاملة حتى اذا ضقنا بالجد او ضاق بنا تحولنا الى ما دق من سخرية وتهكم لاذع نفرغ به أمضّ احكامنا واعنف ملاحظاتنا السلبية والأيجابية ، فاذا ما تحرّج الموقف وتعسّر الهزل والجد فيما يهمنا ملنا الى الصمت والسكوت الصارخ المبين او صرفنا الكلام الى وجهة بعيدة عما نحن فيه من نزاع وخصومة .

ولا أخال هذه المجموعة من الاوراق — على اختلاف وجهات النظر فيما تضمنته وعلى اختلاف بواعثها وملابساتها — الا صدى خافتاً لما كانت تطفح به تلك المجالس والحلقات ، ولا احسب هذه الابحاث والاقوال المزجاة الا صوراً مصغرة لما افاضه عليّ اخواني واصدقائي واخصامي من آراء وملاحظات وخواطر ، فهي — بان تنسب الى هذه الطبقة من الناس والى هذا الجيل من الادباء — أولى وأحق منها بنسبتها الى فرد مثلي ، وهي لان تكون من وحي هـــذه الفترة

المتطاولة التي قضيتها بين المصح والبيت او بين الاصدقاء والاخصام او بين الاساتذة والتلامذة .. اصح واقرب الى الواقع من ان تكون بخيالها وحقيقتها من وحي هذه الايام التي أدلف فيها باوراقي هذه الى المطبعة واحاول ان اخرجها في كتاب .

لهذا اتمنى على القارىء الحصيف اذ يمضي في مطالعة كتابي وتحليله ان يقدر هذه الفترة من الزمن وينعم النظر فيما تخللها من عواصف ومحرجات ومتناقضات كان لها اثرها في تكييف الآراء والصور والاساليب البيانية .. لينصف هذا الجيل المتوثب من الاخصام والاصدقاء

حين يحاول ان ينسب لي شيئاً من القوة والروعة والسمو فيما يطالعه ويتوخاه من كتابي هذا ، اذ قد يكونون هم وحدهم مصدر التوفيق والروعة والسمو في هذا كله ... ثم بعد فليحمّلني وحدي تبعة ما يصطدم به الذوق السليم من تهافت ونشوز وضعف ولا يرفق بي حين يقع على شيء من مظاهر الأشغاف والخطأ والألتواء اذ ليس من مذهبي الرفق باحد حين اقف على شيء من ذلك في آثاره الفكرية والفنية لان الرفق والمجاملة والتسامح في مثل هذه المواقف والهنات انما تكون على حساب الحقيقة العلمية والادبية التي يجب ان تحترم وتقال .

كما انني احب وارجو لهؤلاء المتحرجين في احكامهم وميولهم ان يطمئنوا الى ان الادب في جبل عامل لم يكن فيما مضى من عهوده يختلف اسلوبا وموضوعاً وغرضاً عن غيره من الأدب العربي النابه في مصر والشام والعراق .. ليقال بان ما ينطبق عليه من احكام النقد

وملاحظات الناقدين لا يشمل كل ما ضارعه في نوعه وفي مستواه من فنون الشعر والادب التي عاصرته .

فالانتقاد للادب العاملي وان كان خاصاً بموضوعه فهو عام بموازينه ومقاييسه واحكامه ليس للباحث المنصف ان يستخف به ويتسامح في قراءته او ينظر اليه كما ينظر الموسوسون ـ في الادب العالمي ـ الى كل ما هو اقليمي وقومي من ادب ونقد وفن .

واذا جاز ان يعتبر هذا الادب وهذا النقد من الادب الاقليمي والقومي فجدير بمن يعنى بادب الاشخاص ودرس آثارهم وانتقادها ان يعنى بهذا الادب الاقليمي الصادق ـ في تعبيره او تقليده ـ درساً وعرضاً وانتقاداً .

ذلك بان درس الأدب الذي يمثل الحياة الفكرية في اي اقليم لا يقل اعتباراً وفائدة عن درس الادب الذي يمثل الحياة الفكرية في اي فرد مهما يكن من شأنه ، اللهم الا اذا كان الباعث والموجب للمطالعة .. هو ضخامة العناوين او سحرها وفتونها ، لا حقائق الاشياء وصورها ومميزاتها في القوة والضعف او الروعة والسخف .. ولا البحث عن مصادرها وعناصرها واجوائها ، او تفحص عللها واحكامها ونتائجها تبحراً في العلم وتعمقـاً في الدرس وتهيّوا للأستنباط والاستلهام والحكم المجرد .

علي الزين

أدبنا في القرون الخوالي

انك حين تستقصي تاريخ لبنان في القرون الخالية التي تقدمت القرن الثامن عشر .. درساً وبحثاً واختباراً لا ترى مظهراً من مظاهر الادب يسرّ المترفين في أحساسهم وشعورهم وتفكيرهم ، ذلك بان لغة الكنائس الأجنبية صرفت المثقفين من العرب المسيحيين عن لغة القرآن جرياً مع روح الطائفية التي سيطرت على عواطف اللبنانيين طيلة القرون الوسطى حتى اوشك ان يقتصر الموهوبون من مسيحي لبنان على الازجال والاغاني الشعبية كزجليات المطران جبرائيل اللحفدي المشهور بابن القلاعي (١) وقوله في ختامها :

---

(١) نقل البحاثة فيليب دي طرازي ص ٧٤ من تاريخه عن لبنان : ان ابن القلاعي ؛ هو اول مؤرخ للطائفة المارونية ؛ وليس في تاريخ لبنان بين سنة ١١٠٠ وسنة ١٥٠٠ ما يسد مسد زجلياته : وقال العلامة الدويهي في تاريخه ان ابن القلاعي كان على جانب عظيم من القداسة والعلم والغيرة وكان وحيد عصره ونتيجة دهره بلغ من كل فضيلة غايتها : وقد توفى سنة ١٥١٦ (م) :

بشرّي بيوتك احترقت   بشرّي كتبك اختنقت
كانت محصنة تشتتت   لأنها مملوءة طغيان

. . .

ثمرة يعقوب حلّت فيكِ   ويعقوب عاجز ليس يحميكِ
اطردي يعقوب الساكن فيكِ   واقتبلي البركات من هذا الآنَ

. . .

كملت وبالدموع انكتبت   ومن التواريخ اتخذت
عن ستماية عام حصلت   عهد مارون في جبل لبنان

. . .

وما يروى من قول احدى نساء آل سيفا حكام طرابلس وهي تعرّض بقصر قامة الامير فخر الدين المعني امام ابنته :

جونا الطوال يا نصلة السكين   يا سلسله امذهبي يا سيف علي الدين
جونا القصار لا شور ولا تدبير   مثل الضفادع بيقعوا في قراني البير

ومن قول ابنة الأمير فخر الدين جواباً على قول السيفية :

عيّروني بقصرك قلت عود التبر   والخصر خصر الغزال والعنق شامخ شبر
قولوا لأهل الذكا قولوا لأهل الخبر   القلم يجمع الدنيا ولو كان طولو فدر

ثم رد الامير فخر الدين نفسه على ذلك وهو ذاهب من دير القمر للانتقام من آل سيفا في عكار :

نحنا زغار وفي عين العدو كبار   انتو خشب حور نحنا للخشب منشار

وحق طيبا وزمزم والنبي المختـــار ما بعمرك يا دير الامن حجر عكار(١)

ثم قول القس الياس عويضه في مدح الحاقلاني احد تلامذة روميـــا اللامعين وصاحب النفـوذ والاعتبـار لدى الكرادلة والملوك والبابوات في القرن السابع عشر

وشماس ابراهيم حاقلاني مشهور بعلم الكلداني
علمو مشهور بـين الناس عنـد البـابا والجلاس
عمل غرامطيق سرياني يورث حيـاة الأبديـة
دائم كان مرفوع الراس ببيوت الكردينالية (٢)

ثم هذا الذي يتناقله الرواة من ازجال – شاعر ابن معن – ما ميــه الملقب بالرومي كقوله :

لما اتينا (صفد) عجنا على (جاعون)
طلبت خــبزاً وكانت رفقتي جاعون
قالوا اذا رمت اكل العيش رج (ماعون)
نحن الذي طبعنـــا ان نمنع الماعون

. . .

وقوله :

رأيت محبوب قلبي في نهار الحد قد سل من مقلتو صارم ثقيل الحد

---

(١) مجلة المشرق البيروتية . م (٣٠) ص ٨٣٦ :
(٢) المشرق ايضاً : (م ٢٨) ص ٤٣٩ :

قلت والشوق ما لوفي الحشي من حد　　　تكسر جفونك وفي العالم تقيم الحد

. . .

وقوله :

يا منية القلب مالك تغضبي مالك　　　وحسن وجهك لأرباب الهوى مالك
اقسم بمن عن حديثو قد روى مالك　　　إن تقتلي عبد ودك تخسري مالك! (١)

هذا وغيره مما يدل على ان ادب القوم كان لا يختلف — بلغته وخياله وتفكيره — عن ادب الأميين وان افتتانهم بالزجل — وهو وليد الامية — لا يقل عن افتتانهم به يوم ولد : كما ينبئنا ابن خلدون ص ٥٤٨ من مقدمته حيث قال ما لفظه :

« ولما شاع فن التوشيح في اهل الأندلس واخذ بـه الجمهور لسلاسته نسجت العامة من اهل الامصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير ان يلتزموا فيها اعراباً واستحدثوا فنــاً سموه بالزجل والتزموا النظم فيه على مناحيهم الى هذا العهد »

وحيث قال ص ٥٥٧ « وكان لعامــة بغداد فن مـن الشعر يسمونه المواليات وتحته فنون كثيرة منهــا (القوما) وتبعهم في ذلك اهل مصر القاهرة واتوا فيها بالغرائب : ومن اعجب ما علق بحفظي قولهم :

يا حادي العيس ازجر بالمطايا زجر　　　وقف على منزل احبابي قبيل الفجر
وصيح في حيهم يا من يريـد الأجر　　　ينهض يصلي عـلى ميت قتيل الهجر

. . .

---

(١) سوق المعادن للعلامة الشيخ محمد علي عز الدين .

وقولهم في ذم المشيب :

نادیتها ومشیبي قد طواني طي   جودي علي بقبله بالهوى يا مي
قالت وقدلي كوت داخل فؤادي كي   ما هكذا القطن يحشى فم من هو حي

...

وفي وصف الحشيشة :

دي خمر صرف التي عهدي بها باقي   تغني عن الخمر والخمار والساقي
قحبا ومن قحبها تعمل على احراقي   خبيتها في الحشا طلّت من احداقي

وغير بعيد ان تكون هذه الأمثلة السائرة من الازجال انموذجاً للادب العالي الذي كان يطمح اليه نوابغ لبنان في العهود السالفة ، اذ لا تصادف في ما حاولوه من نظم ونثر في اللغة الفصحى ما يشبه هذه الازجال طرافة وعذوبة او يرضي ذوق المثقفين ثقافة عربية صحيحة ويروى ظمأهم الى ادب سري اللفظ والمعنى والهدف .. اللهم الا اذا تلفت بسمعك وقلبك الى هذه الآثار التي اشاعها نوابغ العاملين في العهد المعني ، بين سنة ١٦٠٠ و ١٨٠٠ فعندئذ تسمع وتبصر انغاماً وصوراً ترتفع بشعورك واحساسك وذوقك عن مستوى هذه العامية الشائعة في الادب اللبناني

وتنقلك الى جو فني يدنو بقلبك ووجدانك من الادب العباسي الاصيل في فصاحة لغته وصفاء خياله وصدق احساسه ونبل مقاصده ولا يشعرك بشيء من التقصير الا بانه ادب علماء وفقهاء ورؤساء دين . شغلهم النظر في الموضوعات العلمية والدينية عن التجرد للادب واعتباره غاية رئيسية يصح الانقطاع لها كما كانوا ينقطعون للتصنيف والتأليف والنظر في مشاكل العلم

والدين والحياة الاجتماعية ، وهم في ذلك لا يختلفون عن بقية النوابغ من علمائنا وفقهائنا الاولين الذين مارسوا الادب هواية وترفيهاً عن انفسهم ، او استجابة لداعي الضرورة في حالة من الحالات العصيبة :

وايضاحا لهذه المزاعم وتأكيداً لها اتقدم من القارىء الكريم بنموذج من آثارهم الادبية في العهد المعني واكتفى من ذلك بقول العلامة الشيخ حسن زين الدين صاحب كتاب المعالم (١)

واعجباً مني وما إن ارى | تعجبي مني يجديني
اطيع نفسي ان دعتني الى | امرٍ به تؤذى وتؤذيني
وحيث ادعوها الى مطلب | تنجو به حقاً وتنجيني
تلقى دعائيها على عِشْرِه | بأي اعراضٍ وتعصيني (٢)
فمن عذيري او شفيعي اذا | ناديتها يوماً تلبيني
ومن معيرٌ لي نفساً بها | اعتاض عن نفسي وتكفيني

وقوله ساخراً من نفسه او ناقماً عليها

قد كنت احسب قلبي قبل ما رحلوا | مبرّءاً ويحه من قسوة الناس
ومن بقائي وقد بانوا تبيّن لي | انا سواء واني مثلهم قاسي

. . .

---

(١) هو من ادباء القرن العاشر الهجري وله ديوان شعر مخطوط على ما جاء في كتاب (الدر المنثور)

(٢) العشر بكسر العين وسكون الشين على وزن خمس : وهو ان ترعى الابل تسعة ايام ثم ترد في اليوم العاشر : وعلى ذلك يكون معنى البيت : تلقى نفسي دعائي لها على طوله والحاحه واجهاده ـ باعراض شديد وتعصي امري :

ثم يقول الشيخ نجيب الدين الجبعي (١)

لي نفس اشكو الى الله منها   هي اصل لكل ما انا فيه
فجميل الحلال لا يرتضيني   وقبيح الحلال لا ترتضيه
فالبرايا لذا وذاك جميعاً   لي خصوم من عاقل وسفيه

. . .

وقوله :

المرء لا يسلم من حاسدٍ   او شامت في اليسر والعسرِ
فهو على الحالين لا بد ان   يلحقه شيء من الشر

. . .

ثم يقول الشيخ زين الدين (٢)

الى كم مقاساة النوى والنوائب   وتعليل نفسي بالاماني الكواذب
وكم ذا اعاني لوعة بعد لوعة   واصحب من هذا الورى غير صاحب
لقد سئمت انضاؤنا السير والسرى   وكلت عن الشكوى متون النجائب
وكلفت حمل الذل نفساً أبيةً   ترى دون ما حملت ضرب القواضب

---

(١) هو من ادباء القرن الحادي عشر وقد توفي سنة ١٠٥٠ ﻫ : راجع ترجمته في سلافة العصر ؛ وامل الآمل ؛ وخلاصة الاثر :

(٢) هو من ادباء القرن الحادي عشر وحفيد الشيخ حسن زين الدين صاحب المعالم وقد توفي سنة ١٠٦٤ ﻫ راجع ترجمته في كتاب الدر المنثور ؛ وفي العرفان م ٣٨ ص ٩٩٦ ثم في خلاصة الاثر :

وحلّت عرى صبري الجميل واصبحت ربوع اصطباري مقفرات الجوانب
واصعب ما القى من الدهر هيّن وان عد كل مـــن جليل المطالب
سوى سطوات البين مثلت بعينـــه وتكديره مـن كل ورد مشاربي
غداة افترقنـــا والجفون قريحة وليل النوى والبين مرخي الذوائب
وصحبي وقوف للوداع كأنما يودع كل منهم غــير آيب
فهل لكئيب شتت البـــين شمله وابعده عـن صحبه والاقارب
بشير بطيب الوصل يحي بقربـه صريعاً رماه البين عن قوس صائب
فيا برق يمم سفح لبنان ناشدا لقلبي المعنّى بـــين تلك الملاعب
وقل لهم ذاك الكئيب الذي نأى عـلى رغمه عـن حبكم غير راغب
مشوق ولولا ما جنى الدهر لم يكن الى غيركم يلوي عنان الركائب
يحن اذا ما شام بالشام بارقـــاً فيصبو ولا يصبو الى قول لاعب

. . .

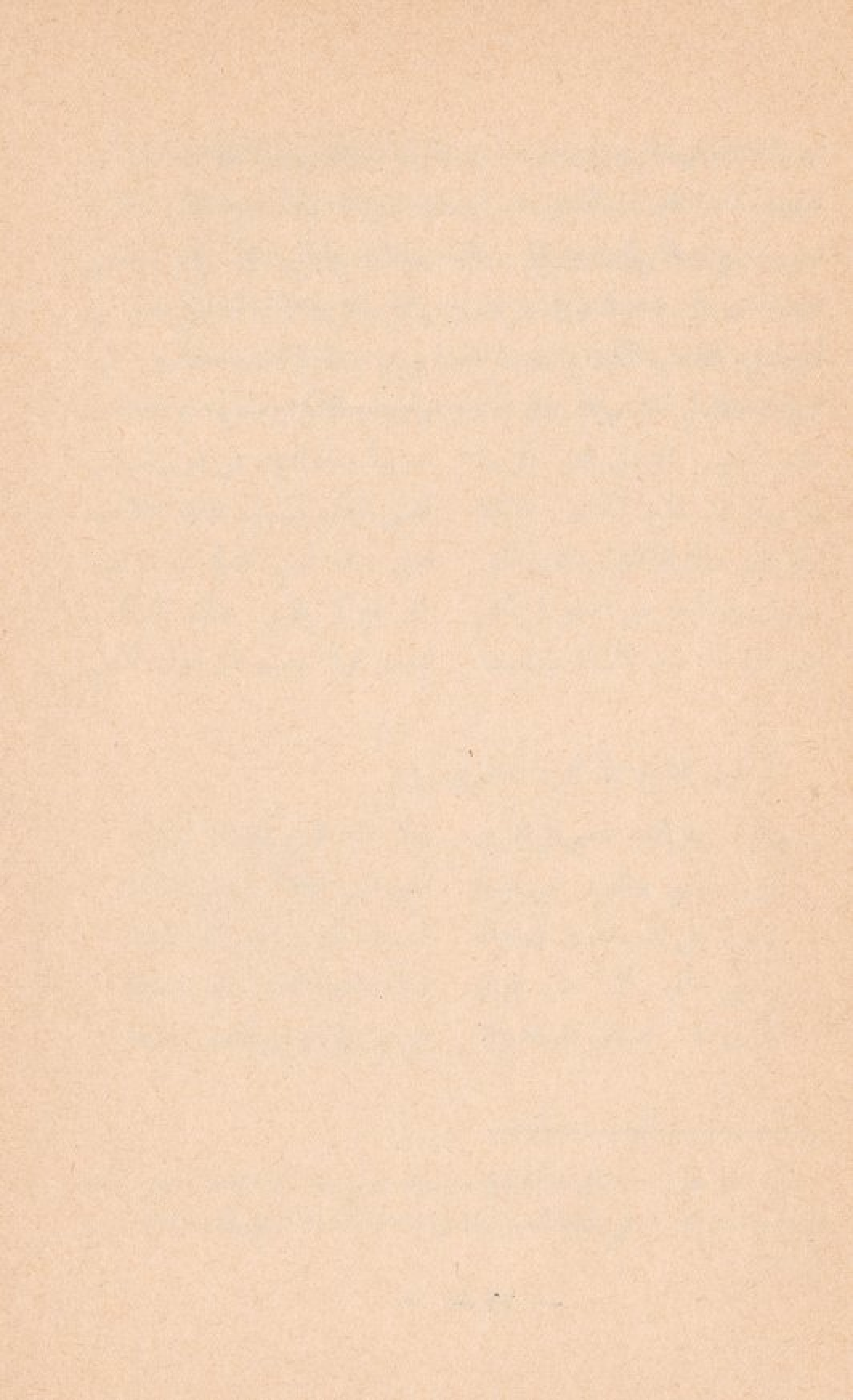
ثم قول الشيخ محمد محمود المشغري (١)

. . ولم أر مثل الغيد اعصى على الهوى ولا مثل قلبي للصبابة اطوعا
ومن شيمي والصبر مني شيمة متى ارم اطلالاً بعيني تدمعا
وقورٌ على يأس الهوى ورجائه فمـــا اتحسّى الهم الا تجرعا
خليلي مالي كلما هب بارق تـكاد حصاة القلب ان تتصدعا
طوى الله اسباب المودة بيننا فلم يبق في قوس التصبر منزعا

---

(١) هو من اه القرن الحادي عشر وقد توفي سنة ١٠٩٠ هـ راجع ترجمته وشعره المنخل ال في سلافة العصر بين ص ٣٢٣ - ٣٥٥ ؛ ثم خلاصة الاثر ؛

لي الله كم اغضي الجفون على القذى　　واطوي على القلب الضلوع توجعا
الا حبذا الطيف الذي قصر الدجا　　وان كان لا يلقاك الا مودعا
ألمّ كحسو الطير صادف منهلاً　　فازعجه داعي الصباح فاسرعا
وناضلته باللحظ حتى اذا رمى　　بسطت له حبل الهوى فتورعا
قسمت صفايا الود بيني وبينه　　سواء ولكني حفظت وضيّعا
وحزّت نياط القلب اسباب بينه　　فلله قلبي ما ارق واجزعا



الادب وتطوره في جبل عامل

«على شاطىء هذا الأبيض وأمام مجد التاريخ الماثل في أنقاض صيدا وصور القديمتين نهضت بقعة صغيرة منفردة من بقاع الشام قد نظمها الله آكاماً متماسكة تتسامى إلى العلاء رويداً رويداً كلما أمعنت في الابتعاد عن الشاطىء نحو مطلع الشمس ، تلك هي جبال عاملة التي يعرفها الناس باسم جبل عامل .»

وجبل عامل هذا العربي الصريح في نسبه (١) والشيعي القديم في ولائه لأهل بيت الرسول (٢) لم يكن له فيما مضى وجود سياسي مستقل حتى في العهود الاقطاعية ليكون له من ذلك تاريخ مستقيم الحدود عالي الدعائم يجوز للمعتد بوجدانه منا ان يعوّل عليه ويطمئن الى فحواه وانما كل ما يمكننا ان نفخر به من السياسة في ذلك العهد الاقطاعي المظلم ان ساستنا استطاعوا أثناء هذه الفوضى أن يدافعوا عن كيانهم فى كثير من المواقف السلبية بما تهيأ لهم من تيقظ روح النجدة والحمية في أبناء مقاطعتهم المضطهدين أو ان ينقذوا بلادهم وانفسهم واعراضهم من خطر النهب والقتل وما الى ذلك من انواع العسف والتدمير ؛

أما ان ساستنا استطاعوا ان يسيطروا على ما حولهم من البلاد

(١) دراسة اعدت مقدمة لكتاب الطلائع الادبية في جبل عامل سنة ١٩٣٨

(٢) راجع كتاب مع التاريخ العاملي ص ٣٤ - ٥٩ :

والمقاطعات المناهضة لهم . او حاولوا ان يفرضوا ارادتهم على من سواهم من الحكام والجيران كما كان يفعل ارباب الحول والطول من المعنيين والشهابيين والحرافشة والزيادنة فذلك شيء لم يكن له في تاريخهم أثر يذكر (٣) او شاهد يؤثر من ايامهم المعدودة ومواقفهم المشهودة والا لما تخلوا — في عنفوان يقظتهم ونشاطهم — عن جزين وهي قاعدة بلادهم العلمية : ولا عن قراها ولا عن قراه العامرة المشرفة وهي بوضعها الجغرافي تشكل خط الدفاع المحكم عن حدود بلادهم المرموقة من قبل الحكام الطامعين في اذلالها وامتلاكها ؛

ولكن التاريخ العاملي المجيد الذي يحق لنا أن نفاخر به وأن نطاول حواضر البلاد السورية والعربية أجمع في تلك الفترة التي تخلف بها كل علم وأدب وانضوت كل ثقافة وحضارة في دنيا العرب والاسلام هو تاريخهم العلمي والادبي الحافل بروائع الاخيلة والافكار والاساليب البيانية كما يبدو للباحث والممعن في اثارهم العلمية والادبية :

مجمل الحالة الأدبية قبل الجزار

وإذا كان من الصعب على الباحثين اليوم تقويم هذا التاريخ وتوضيح حدوده ومعالمه بغير ان يوزعوا مجراه ويقسموا فصوله الى عهدين ، العهد الذي تقدم حملة احمد باشا الجزار سنة ١١٩٥ هـ و ١٧٨٠ م والعهد الذي تلاها واستمر الى هذه الساعة . فان العهد الذي تقدم حملة الجزار لا يمكننا التوسع في تفصيل ادواره وتحديد شخصياته

(٣) راجع تاريخ الامير فخر الدين المعني تأليف الصفدي : وتاريخ الشهابية تأليف الامير حيدر احمد الشهابي : وخطط الشام لمحمد كردعلي :

وطبقاته كما يجب لبعد العهد وقلة المصادر واندثار الكتب العاملية في زعازع تلك الغارة المشؤومة الا ما ندر من الكتب التي سلمت من النهب وتعدت جبل عامل في عصرها الى غيره من البلدان كاللمعة ، والمدارك ، والمكاسب ، والمعالم والوسائل وادب المفيد والمستفيد ، وامل الآمل ، والخلاصة ، والصمدية ، والكشكول ، والمخلاة ، وما اليها من نفائس علمية وادبية لا تزال الى يومنا هذا تعتبر من اوثق المصادر واعذب الموارد لطلاب العلم والادب في مدارس الشيعة وفي سائر معاهدها العلمية على اختلاف اللغات وتنوع الامصار والبلدان .

الأنموذج

وقد يكون في هذا الانموذج من وصف قلعة الشقيف للشيخ ابراهيم الحاريصي

ما الشقيف الصلد الا جنة	ولنا قصر باعلاه استتار
ليس يدنو منه في حسن البنا	قصر غمدان ولا عظم الجدار
تنظر المرآة فيه فترى	فوقك النهر تراءى في انحدار
ما رأينا قبل هذا جدولا	فوق قصر شامخ في الجو طار
زينة الدنيا على أرجائه	تزدهي في كل نحو كالفنار
نقشها مختلف مؤتلف	في ابيضاض واحمرار واخضرار

وفي هذه الصورة الحماسية من معارضة الشيخ حسن سليمان المتوفي عام ١١٨٤ هـ ، للشيخ عبد الحليم النابلسي في قصيدة مطلعها :

سبقت فما شق الغبي غبارها وسمت فما بلغ البليغ مدارها

وهي مما ينتقد به العامليين ويؤنبهم (١) لاستمرارهم على مقاومة ظاهر العمر والصفدية في ضواحي قرية تربيخا ؛ بين سنة ١١٧٦ و ١١٨١ هـ : فيرد عليه شاعرنا العاملي بهذه القصيدة التالية (٢)

عني اليك فهل بلغت مزارها وحللت في طلب الوصال ديارها
وأسمت لحظك في رياض جنانها وقطفت فيها تدعي ازهارها
أنى تفوز بها وقد ضربت على هام المجرة عنوة استارها
أين الثريا والسماك من الثرى ان كنت ممن يستبين مدارها
دع عنك يا مغرور نخوة مدّع لا يهتدي ابد الزمان منارها
لا تبلغنّ بك الحمية مبلغاً لا يرتدي أهلوه الا عارها
هي عزة لمن اهتدى ومذلة لمن اعتدى متحملاً اوزارها
كم حركت قدماً اعزة معشرٍ فتبوؤا يوم القيامة نارها
ما أنت والتعريض بالنفر الاولى امسى الكفاح شعارها ودثارها
من كل شريب النجيع واشوس يبتز من اسد الشرى أعمارها
سل يوم طربيخا وقد هجم الردى والحرب تقدح الكماة شرارها
هل كان غيرهم يمج سنانه .. حتفاً ويردي في الوغى اشرارها
حتى أصابوا الخيل ثمة مغنما وحملتم أبدا الزمان شنارها
ونكصتم رغما على اعقابكم تتطلبون من الربى اوكارها
ما خلت الا ان املاك السماء كانت كما كنا بها انصارها
في فيلق لا يستقر حمية .. حتى يبيد من العدى فجارها

---

(١) المرادي في كتاب سلك الدرم ١ ص ١٥٦ (٢) اعيان الشيعة م ٢١

لا يبتغي إلا الصوارم عصمةً   في كل ملحمة يخوض غمارها
من كل مفتول السواعد أشوس   لا يرعوي حتى يسد عوارها

...

اقسمت لو أن المنية سلعة   ما سامها إلا هم واختارها
لو كنت تفقه ما اقول منحتني   صفو المودة إذ حميت ذمارها
لا ألفينك ما حييت معرضا   بهجاء قوم لا تشق غبارها

ثم في هذا المثل من حنين الشيخ ابراهيم يحيي الى عاملة — وقد طوح به الخوف من فتك الجزار — الى دمشق:

من لي برد مواسم اللذات   والعيش بين فتى وبين فتاة
ورجوع أيام مضين بعامل   بين الجبال الشم والهضبات
والشمل مجتمع واخوان الصفا   أحنى من الآباء والامات
والروض أفيح والجناب ممنع   والورد صافٍ والزمان مواتي
إذ لا ترى إلا كريما كفه   والوجه عين حياً وعين حياة
تختال في المغنى الرحيب ضيوفه   ان الكرام رحيبة الساحات
او عالما حبراً اذا خضخضته   حشد المحيط عليك بالغمرات
واذا اقتبست النور من مشكاته   اهدى اليك البدر في الظلمات
او شاعراً ذرب اللسان تخاله   قحا ترعرع في الزمان العاتي
يأتي بكل غريبة وحشية   نشأت مع الآرام في الفلوات
ويصوغ كل بديعة حضرية   مصقولة الجنبات كالمرآة
لهفي على تلك الديار وأهلها   لو كان تنقع غلتي لهفاتي
خطب دعاني للخروج من الحمى   فخرجت بعد تلوم واناة
وتركته خوف الهوان وربما   ترك النمير مخافة الهلكات

قد يكون في هذا الشعر وفي دواوين هؤلاء الشعراء وديوان عبد المحسن الصوري ، والكشكول ، والمخلاة ، ومنيـــة الاديب ، والدر المنثور او فيما ورد في كتاب سلافة العصر ، من آثار بعض ادبائهم وتراجم بعض علمائهم مـــا يكفي لتمثيل ادبهم وثقافتهم في العصور الخالية

وخصوصاً اذا امعنا النظر في درس هذه الابيات :

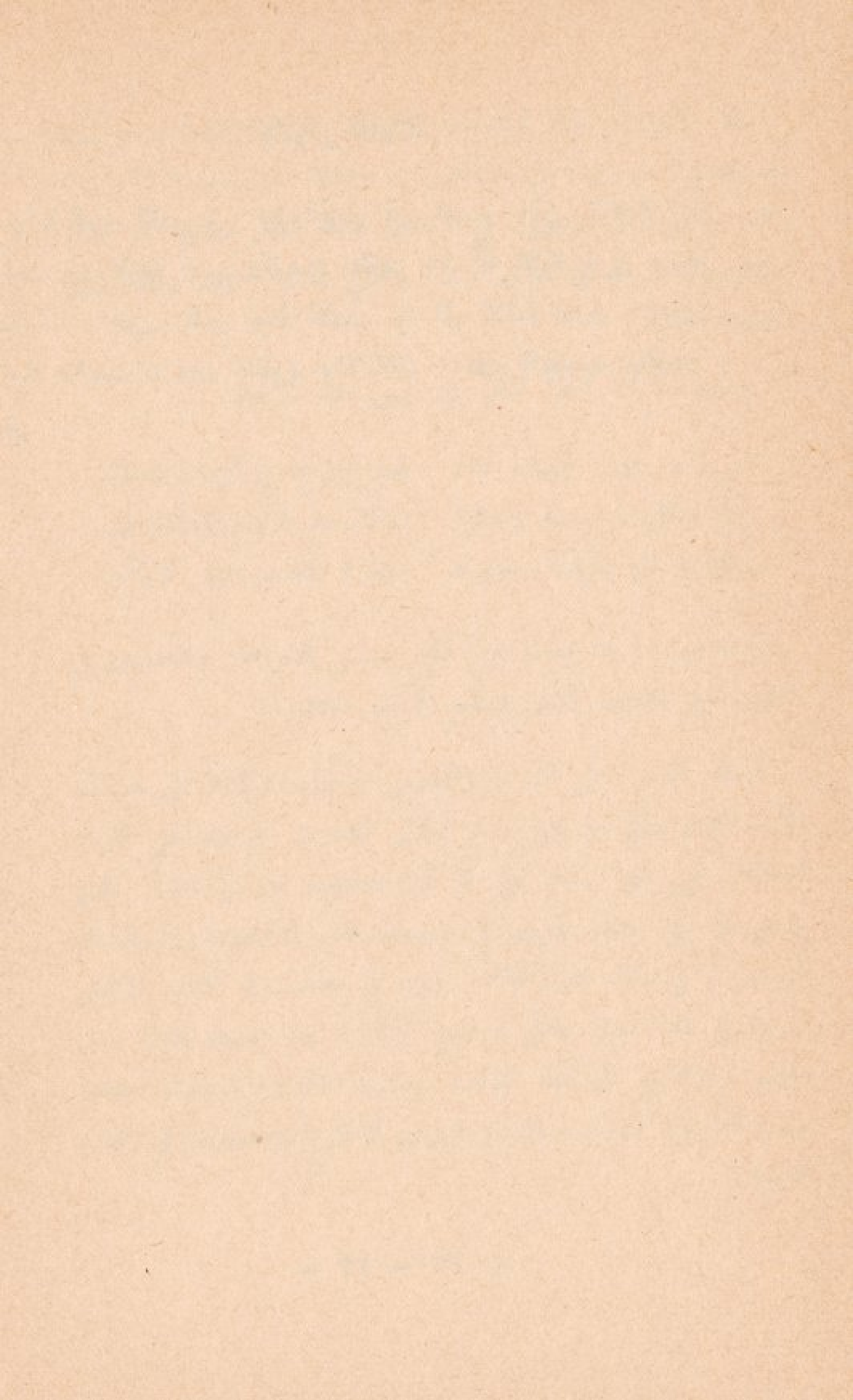
او شاعر ذرب اللسان تخاله   قحا ترعرع في الزمان العاتي
يأتي بكل غريبـــة وحشية   نشأت مع الآرام في الفلوات
ويصوغ كل بديعـة حضرية   مصقولة الجنبـــات كالمرآة

فان فيها ما قد يغنينا عن كثير مـــن الشواهد والنصوص في التعرف الى اهداف الشعر وطابع البيان عندهم :

لذلك نجتزىء عن الشرح والتفصيل باجمال الاشارة الى هـــذه الآثار القيمة والى ما بقي مـن أطلال المدارس في ضواحي القرى العاملية . فهي خير شاهد على ما كان للعامليين مـــن امتياز علمي وادبي او على مقدار تفوقهم (مع ضعف حالهم الاقتصادي واضطهادهم السياسي) في ذلك العهد القاتم . وان في مطالعـــة كتاب « امل الآمل في علماء جبل عامل » طبع ايران ، وما يعدده هناك مـــن علمائهم ومؤلفاتهم الى عهد المؤلف يزيـــد القارىء استبصاراً بعظمة جهود العامليين الاول وباتساع ثروتهم الفكرية وخصوصاً في العلوم الدينية .

الادوار الثلاثة

وأما العهد الذي يلي حملة الجزار فهو العهـد الذي يمكنك اذا تدرجت مع تاريخ ادبهم وتتبعت مظاهر الحركة الفكرية في هـذه الحقبة منه ، ان تقسم حياة الادب فيه الى ثلاثـة ادوار : دور الاحياء والبعث ، دور التطور والانتقال ، دور التجديـد والترف الفـني .



دور الاحياء والبعث

عندما استيقظ العامليون من غشيتهم على اثر تلك الصدمة العنيفة وما قد تبعها من ذيول مريعة ورأوا ما اصاب جامعتهم من تشتيت وما نزل بساحتهم من بلاء وحاق بهم من ضعف وفقر ، وما منوا به من فقد علمائهم وادبائهم وقادتهم نفياً وقتلا وتشريداً ، ومن اندثار مكاتبهم وتلاشي آثارهم حرقاً ونهباً وتداعياً بيد البلى ، راعهم خطر الموقف وهالهم بعد الشقة ما بين حاضرهم وماضيهم فتواثبت لذلك بقايا العواطف المكبوتة جزعاً وخوفاً وشظايا القلوب المتقدة غيرة وحمية ، وهبّ الجميع يعملون على توحيد الشمل ، ورأب الصدع ، وترميم ما درس من اطلال ، واحياء ما سلف من عهود علميـــة وادبية ، وكان لهذا الاتجاه صداه فيما بعد واثره في تأسيس مدرسة الكوثرية ثم مدرسة جباع ثم مدرسة حنويه ثم مدرسة بنت جبيل ثم مدرسة النبطية ثم مدارس : انصار ، وشقراء ، وعيثا . وكان لهذه المدارس مع تعاقب الرحلات العلميـــة الى النجف وتأثر المهاجرين منهم بالثقافة النجفية والآداب العراقية ، نتائجها القيمة في توجيـــه

الافكار نحو الحياة العلمية وعملها المؤثر في احياء الروح الادبيـــة وتوطيد الاسس لهذه النهضة المباركة التي قام بها اولئك اللامعون من ادباء هذا الدور وعلماء ذلك الجيل كالشيخ علي زيدان والشيخ ابراهيم صادق ، والشيخ علي السبيتي والشيخ عبد الله نعمة ، والشيخ محمد علي عز الدين ، والشيخ موسى شراره ، والسيد محمد علي ابراهيم ، والسيد علي محمود الامين ، والسيد نجيب فضلله ، والسيد جواد مرتضى ، والسيد حسن يوسف ، والشيخ محمد سليمان ، والشيخ محمـــد حسين شمس الدين ، والشيخ موسى مغنيه ، ممن رفعوا لواء النهضة العلميـــة والادبية في هذه البلاد وأحيوا عهداً زاهراً تغلبوا فيه على العوامل الهدامة التي اوشكت ان تجتاح اللغة والعلوم والآداب العربيـــة في مثل بيئتهم وظروفهم . ولو انه تسنى لهم ما قـــد تسنى لغيرهم في هذا العصر من الاتصال بمثل معاهد اليسوعيين والاميركان والانتفاع من مطابعهم ومكاتبهم وتنوع ثقافتهم الى غير ذلك مما يغذي المطامح العلمية والفنية لكان لهم في عالم النهضة الفكرية والادبية اثر غير هذا الاثر وشأن غير هذا الشأن . وبرهاننا على صحة هـذا الزعم نبوغ السيدة زينب فواز العاملية صاحبة كتاب الدر المنثور ورواية حسن العواقب عندما ذهبت الى مصر واتصلت بمثل هذه البيئات العلمية . ثم نبوغ حسن كامل صباح مؤخراً في دنيا العلم والاختراع عندما تهيأ له من معاهد اميركا ومختبراتها ما ساعده عـــلى تحقيق احلامه واختراعاته .

مميزات الادب في هذا الدور

أما ما يمتاز به الشعر في هذا الدور فذلك بان كان جل هم الشاعر وجل هم الاديب ان يسموا في براعة الاستهلال وحسن التخلص وبيان الغرض مع الاهتمام برصانة التركيب وفخامة اللفظ وفصاحة البيان الى مصاف النابهين من شعراء العراق في القرنين المتأخرين كالازري ، والحلي ، والحبوبي ، او الى مستوى الفحول الاول من شعراء الجاهليين والامويين والعباسيين ، ثم ان يقتفي اثرهم في المواقف الشعرية ويترسم خطاهم في الموضوعات التي كانوا يتداولونها من مدح ورثاء وغزل ونسيب وما اشبه ذلك مع ميل غير قليل الى المبالغة في الوصف والاغراب في الخيال الى تكلف الصبابة في النسيب واصطناع التهويل في الرثاء وقد يغلو واحدهم في المحافظة على كل خاصة من خصائص الادب القديم فيرتاب بصحة ما يخالفه من اسلوب او خيال او حقيقة او مجاز لفظي او معنوي كل ذلك حرصاً على تمثيل الفصاحة البدوية باروع ما كانت عليه وظهرت به في سالف عصورها وزاهر ايامها : وفي النصوص الباقية من شعرهم ومن كلفهم بالمعارضة والتشطير والتخميس ثم طرائقهم في الجدل والمناظرة والنقد : ما قد يوضح زعمي ويقرب ظني الى مستوى القطع :

ابلغ عوامل التقليد

وربما كان من اقوى البواعث على التزام هـذه الخطط التقليدية ان اصحاب الكفاآت والمواهب الفنية منهم لم يتهيأ لهم ان يتخذوا الشعر والادب غاية لذاتها او ينصرفوا بهما الى المواضيع الفنية البعيدة عن سلطان العرف والتقاليد الجائرة ، ويتكلوا فيما ينشئونه عـلى افكارهم وعواطفهم ويخلصوا لها في منطقهم وبيانهم ، وانمـا كانوا مضطرين بحكم الظروف السياسية والتقاليد الثقافية الى مراعاة الشائع والمألوف من فكرة وعرف واسلوب ، ثم الى جعل الشعر والادب وسيلة لتحقيق اغراضهم الاجتماعيـة واداة مصطنعة اقتضـاء حاجاتهم الضرورية او لرفع المسؤولية عنهم في الحفلات والمناسبات والمجاملات الوقتية .

الخصائص المذهبية في شعرهم

ثم اذا كان هنالك ما يميزهم عن غيرهم من ادباء سوريا ولبنان في هذا الدور فهو تأثرهم الى حد بعيد بكل ما له صلة وثيقـة بتاريخ المذهب الشيعي ، اذ قلما تجد لهم مجموعة ادبية او ديوان شعر قد خلا من وحي العواطف الشيعية المحتدمـة ، عواطف الحب لآل بيت الرسول او عواطف الحزن والرثاء لما ألم بهم من حيف وظلم ، او عواطف الحماسة والثورة على مغتصبي حقوقهم ومضطهديهم مـن

الساسة مع توخي الاستدلال على صواب خصائصهم المذهبية وعلى خطأ مخالفيهم . وانه وان يكن في هذا شيء من التقليد لشعراء الشيعة الاولين كالكميت ودعبل وابي تمام وابن الرومي ، وابي فراس الحمداني والرضي وصفي الدين وغيرهم ، فلا شك في انه كان يمثل اصدق عاطفة منهم واقوى عقيدة في نفوسهم . ولعل اصح نموذج لهذا الادب ديوان الشيخ ابراهيم صادق والقصيدة الغديرية للشيخ محمد حسين شمس الدين .

. . .

وعلى اي حال يمكننا — بهذا اللحاظ وبهذا القياس — ان نقول ان شعراءنا المتقدمين قد ادوا رسالتهم محكمة الاصول متنوعة الفروع واخذوا بحظهم الاوفى من احياء الادب العربي القديم والاحتفاظ بمذاهبه واساليبه وجماله البدوي التليد . ولعل اصدق نموذج لادبهم وشعرهم هذه القطعة من شعر الشيخ محمد حسين شمس الدين :

على الدار من سلمى بذي الاثل سلّموا
وهل تنطق العجماء او تتكلم

قفوا بمجانيها قليلا لعلني — اداوي الحشا من زفرة تتضرم
دعوني اجيل الطرف في عرصاتها — قديا وفي آياتها اتوسم
اناشدها عنهم متى عنك قوضوا — وفي اي واد بعدك اليوم خيموا

وشعث على الاكوار خمص من الطوى
سروا يخبطون السير والليل مبهم

خفاف على الاقتاب إلا حلومهم وان وَقَذتهم نعسة السير هوّموا
ينصّون في الليل البهيم قلائصا لها من ذميل السير وردٌ ومطعم
اذا ركبوا طارت بهم عزماتهم وان قارعوا فالحمد كسب ومغنم
مذاويد لا تهفو لروعٍ حلومهم وان عزموا يوماً على الروع صمموا
وكل له في ذروة النجم غاية على انهم في ظلمة الليل أنجم
يمسّح عن اجفانه سنة الكرى ويمضي على العلات والناس نوم

حالة النثر الفني

وأما النثر الفني فقد كان ضعيفاً متخلفاً يسهب في العبارة ولا يفصح ، ويجمل في الاشارة ولا يبين ، ويكثر من الجمل المترادفة والاستطرادات البعيدة بدون نظام ولغير مناسبة قوية ، ما خلا الحرص على رصف الالفاظ والاستفاضة من معاني البديع ، وما خلا المبالغة في الوصف والتهويل في الادعاء والاسهاب بما لا يمثل شعور الكتاب وآراء المنشئين ، وانما يمثل تكلفهم او تملقهم ورغبتهم في ارضاء المخاطبين وتقليد المتقدمين كما يبدو من بعض الرسائل المخطوطة ومن كتاب (الجوهر المجرد) للشيخ علي السبيتي في شرح قصيدة علي بك الاسعد ومن خطبة الشيخ محمد علي خاتون في تأبين الزعيم حمد البك . ولعل الاغراق في السجع والكلف بالجناس والطباق الى غير ذلك من الزخارف البديعية اظهر مميزات هذا النثر .

واليك هذه الجملة للاديب الفاضل الشيخ علي سبيتي مـن مقدمـة كتابه في شرح قصيدة الزعيم المومى اليه نموذجاً لنثرهم :

. . .

« ان الادب مهما خمدت ناره ، ونبت شفاره ، وسدلت استاره ، حتى تشابه ليله ونهاره ، فما زال علماً قد رفع مناره ، وجل اعتباره ، وحمدت آثاره ، ومدحت سمّاره وكملت اقماره ، وتعالى مقداره ، سيما ان شفع بالتاريخ نكاته ، ومزجت بالغابر اشاراته ، ووشّحت بالوقائع فقراته ، ورصعت بالفرائد أبياته ، وبالغرائب اشتاته ، وتحلت بالعقود المنظومة لبّاته ، ولـكم حاولت منه ابراز بدره وكشف سجاف خدره ، فأراني كالفرخ يروم نهوضاً فيقع ، او كالكسير يشتد لحاقاً فيرجع ، فأغضي عيني ارتماصاً ، وأجرع ريقي اغتصاصاً ، فكم مسودة طرحتها من تمزيق العثاعث ، وفريدة نبذتها نبذ يمين الحانث ، وجوهرة جانبتها مجانبة الطامث ، حتى علقت كفي بالدر النضيد والعقد الفريد والجوهر المنظوم بسلك القصيد ، الكلمة التي كادت ان تكون معجزة الايام وكنز الخضر للايتام ، لا جرم ان ناظمها ملك الفصاحة فأعتقها ، وجمع مكارم المحامد فأطلقها ، فلذا ترى نسيبها أرق من نسيم الصبا ، وألين من ممطور زهر الربا ، واذكى أرجاً من قيصوم القطيف ، وابعد مراماً من دعوى الشريف ، حتى اذا برقت بالافتخار رواعدها ، وتعالت بالايام الغابرة جدائدها ، امطرت المنون ورعفت ، واثلمت السيوف وللمران قصفت ، فأنت فيها ما بين روض اريض ، وزهر غضيض ، ومنعة صياص وشدة دلاص ، وان حدثت عما مضى جاءت

بالفحول تهدر ، والاسود تكشر ، والسمهري يمور والهندي يصور ، والبارود يرعد ، والنار تبرق ، والفرسان تدعي والشجعان تتكنى وبوادر الخيل تخطر ، وبواتر الشوس تقطر بينا انت في غض ناعم وطير ناغم ورذاذ ساجم »

. . .

فهل ترى فيها من اثر البيان غير ما تراه من كلف بالزخرف واغراق في المبالغة يوقف القارىء الحصيف موقف الشك بصحة المعنى وصدق الوصف ، ولا سيما اذا انعم النظر في اصل القصيدة المشروحة وعرف ان المختار منها لا يسمو كثيراً عما تتضمنه قصص الزير وتغريبة بني هلال من شعر ركيك الاسلوب سطحي المعنى لا يدل على اكثر من كون صاحبه سامياً في فطرته بسيطاً في معارفه متأخراً في نظمه عن درجة اولئك المعاصرين له من نوابغ الطائفة وشعرائها كما يبدو لك من هذه القصيدة الآنفة الذكر :

حالة التأليف

واما التأليف فانه قلما كان يتعدى الجمع بدون نظام ولا تبويب ولا موازنة كما ترى في كتاب سوق المعادن للشيخ محمد علي عز الدين ، او تلخيص المطولات كما يبدو من منظومة الشيخ موسى شراره في اصول الفقه ، او شرح المتون كما تجد في كتاب مقصد الطالب في شرح شافية ابن الحاجب للشيخ محمد سليمان الزين .

دور التطور والانتقال

لم يكن هنالك من سبيل لحرية الرأي والشعور الشخصي او للتغلب على المصطلحات العرفية والاعتبارات الرجعية اثناء تحكم الفوضى وتمرد الحكم الاقطاعي وما شاكله في البلاد العاملية ، وقد سادت مع التعصب الاعمى روح الارستقراطية الفظة في كل طبقة من الطبقات ، لم يكن هناك شيء من ذلك لنؤاخذ اولئك العلماء والادباء اذا ما وقفت افكارهم وقرائحهم عند اساليب المتقدمين في التفكير او في التعبير عن العواطف التي كانت تستفزهم وتحرك السنتهم في القول واذا هم اقتصروا في الشعر على المدح والرثاء والتعزية والتهنئة او ما يشبه ذلك من الاغراض . أوَلم يكن الاستقلال في الرأي والعاطفة ـ يومئذ ـ والتسامي في النظر والحس الذاتي الى ما وراء المأثور من اقوال واساليب وموضوعات وتقاليد مرعية اشبه بالجنون المطلق او بالخروج على كل نظام وعرف خروجاً يستوجب الهزء والسخرية من صاحبه او يقضي عليه بالحرمان من كل حق محترم في الحياة الاجتماعية ؟ فاذا اضفنا الى ذلك كله ما كان من تقلص الثقافة العامه وانعزال

الطوائف والبلاد بعضها عن بعض بسبب الفوضى في النظام ، وتضعضع الامن ، وعسر المواصلات ، فهل يعترينا شك في ان اول باعث على التطور والتجدد كان بطبيعته حافزاً للهمم ومطلقـــاً للحس والشعور والارادة الذاتية ، هو تضعضع الحكم الاقطاعي ، وتعديل النظـــام الاداري ، وتيسير المواصلات ، مما مهد السبل للحرية والامن وفتح الباب على مصراعيه لاختلاط الناس بالناس وللاطلاع على ما وراء المخطوطات من عوالم فكرية ومناح اجتماعية ومظاهر طبيعية .. حتى جاز لكل متفائل حر الضمير ان يتمثل بقول الشبيبي :

مضى زمان قولك الحق به اثم وقول الاثم حق مفترض
واليوم هذا قولنا فمن نهى وهذه الفاظنا مـــن اعترض

العامل الثاني على التطور

ذلك ــ في اعتقادي ــ هو العامل الاول على التوسع في النظر والتقدم في البحث نحو الجديد ، أما العامل الثاني فقد بدأت طلائعه تنتشر بانتشار الصحف العلمية والادبية كالمقتطف ، والهلال ، والمنار ، وما شاكلها نزعة ولهجة من المؤلفات الجديدة بـــين ايدي الطلاب والادباء ، العاملين ، ثم ما زال اثر ذلك ينمو ويشتد في اعمـــاق القلوب الحساسة بفضل التوسع في البحث والاقبال على المطالعة الى ان اخذت الحماسة للتجديد والاصلاح بيد الحاج علي الزين مأخذها

للعمل على اصدار مجلة العرفان وتحصيل امتياز قانوني باسمه من الحكومة العثمانية سنة ١٩٠٩ م . ثم تولى تحريرها نجله الاكبر الاستاذ الشيخ احمد عارف الزين ، وآزره في ذلك العمل الجليل الاستاذان الكبيران الشيخ احمد رضا والشيخ سليمان ظاهر مؤازرة بليغة ، فكان لهذه العوامل المجتمعة ولهذه الجهود المتضافرة ، ولهؤلاء الاقطاب النابهين — مع من تأثر بنزعتهم على نحو من الموافقة كالشيخ اسد الله صفا والشيخ محمد علي حوماني ، او على نحو من المخالفة كالعلامة الشيخ عبد الحسين صادق والعلامة السيد عبد الحسين شرف الدين — اكبر الاثر في تطور الحركة الفكرية هذا التطور السريع وفي ترويج الدعوة الى التجديد في الادب والتحرر من نير التقليد في التفكير والعمل ، وان ظل هؤلاء السادة — بموجب الثقافة والنشأة الاولى ، وبحكم الاعتبارات والظروف الاقليمية الضاغطة — محافظين على جانب من اساليب التخيل والتفكير والتعبير القديمة فلم يستطيعوا ان يتحللوا من اثر المحفوظات وحكم العبارات المأثورة في عهد الشباب على ما تداولوه في نظمهم ونثرهم من موضوعات جديدة وعلى ما استقلوا به من ملاحظات وآراء طريفة — فهم ما انفكوا في التعبير عن افكارهم المستوحاة من صميم الحياة العصرية يتوجهون في تركيز اساليبهم وأخيلتهم وفي انتزاع تشابيههم وأمثلتهم واستعاراتهم الى الماضي البعيد اكثر مما يتوجهون في ذلك الى الحاضر القريب . وربما كان الحوماني في نزعته الاخيرة اقرب ابناء هذه الطبقة الى الجديد وأشدهم حرصاً على تحقيق اغراضه ونزوعه .

ما يمتاز به الادب في هذا الدور

أما الشعر فهو كشعر اولئك المخضرمين الذين شبوا على ممارسة القديم من علوم اللغة وآدابها ودرجوا على احترام الاوضاع المألوفة والتقاليد المتبعة ، ثم تأثروا بعد ذلك بالجديد من الافكار والمواضيع وبالطريف من الاساليب والصور البيانية الخالصة من زخرف البديع وفضول اللفظ فلذا يبدو وعليه روعة القديم بأساليبه وقوالبه وطرافة الجديد في مواضيعه واغراضه يزخر بكل ما يحملنا على احترامه وتقديره من حكمة بالغة ورأي سديد وقول فصل .

ثم هو في المناسبات الوقتية والموضوعات القديمة كالمدح والرثاء والنسيب وما اشبه ذلك لا يختلف عن شعر المتقدمين في جزالة اللفظ وفخامة المعنى ، والالتزام بكل ما التزموا به من تمهيد المقدمات والتخلص الى الغرض ثم الى الخاتمة مع مراعاة بعض المعاني والجمل التقليدية ، وفي ديوان « الذخيرة » للشيخ سليمان ظاهر وديوان الحوماني النماذج المتعددة لهذا الشعر .

وأمـــا في السياسة والوصف وتصوير بعض الظروف والحالات الاجتماعية فيكاد يكوّن عالماً مستقلا يمثل الشخصية الادبية والسياسية والفكرية لهذه الطبقة المخضرمة اصدق تمثيل بما يتجلى فيـــه من حر البيان وصدق الوصف وسداد المنطق كما ترى في قصيدة الشيخ سليمان : الى ولسن ، وقصيدته في وصف الربيع ، وقصيدة العلامـــة الشيخ عبد الحسين الصادق في وصف السيارة ، ولئن طغى سلطان الفكر

على العاطفة في اكثر هذه القصائد فذلك لان الموقف موقف اتزان وتفكير واعتبار لا موقف تدله وهيام وبث وخصوصاً من الشيوخ .

نموذج من شعر الشيخ عبد الحسين صادق في وصف السيارة

ما لنا سائق الرواحل قدم	فركبناه زائراً زأر ضيغم
فمضى فانطوى الفضاء بلحظ	فحططنا الرحال فالركب خيم
أمن الراقلات هـدراً فنيق	ام من العاديات ضبحاً مطهم
أم من المنشآت غيماً ركام	بين جنبيه سائق الرعد زمزم
أم هو الآية التي لسليمـا	ن أقلت ضوضاء جيش عرمرم
نشرته للشرق ادمغة الغرب	فابدته متقن الصنع محكم
ان يطر جاوز الأثير رقياً	وعلى النهر للمجرة حوم
مركب لا كفلك نوح ومهد	لا كمهد المسيح عيسى بن مريم
مرتقيه يطوي المراحل فيه	وهو منه معرّس في مخيم
وبلطف من هزه وحـداه	يذهل الطفل عن لباه فيفطم
وبه بلبـل رخيم غنـاه	كلما جس بالبنان ترنم
فهو للسكر والغنى والملاهي	مجلس حافل وغير محرم
فهو يحيى ابن غفلة لهـواه	لا كقاضي القضاة يحيى ابن اكثم
شاعر في سبيله وهـو اعمى	راجز في حدائه وهو ابكم
ذو لسان على اللبان وليع	ان تحركه من حشاه تكلم
هب والطرف يجريان ولكن	طامح الطرف ضالعاً عنه احجم

مر ينساب في المهامه صــلاً مطرق الرأس أبتر الذيل ارقم
مقلتاه ليلاً سراجــا صليت او شهابان يرجان المقدم
فبفتح من مقلتيــه وغمض تجد الكون أقمر اللون أقتم
عاقداً في الفضاء عيلم نقــع وهو فلك يجري بساحل عيلم

مواضع الشك والتساؤل

والأمر الذي اصبح موضعا للشك والتساؤل هو هــذا الغزل الصوفي الذي انتهى اليه شعر الحوماني في ديوانه الماثل للطبــع (حواء) فانه على ما فيه من جزالة وعذوبة لفظيــة لا يشعرك ، وأنت تقرأه بشيء سوى الشهوة العابثة التي تذوي لها العيون وتحمر الشفاه اما ان يشعرك بهذه العاطفة الوجدانية وهذا الفناء في ذات المحبوب كما يشعرك صادق الشعر الوجداني في كل لغة وفي كل ادب خصوصا الادب العربي الطافح بمثل قول ابن الفارض حين يتحدث عن شوقه الى الجمال الآلهي وعن آلام الصوفي :

لله أجفان عين فيك ساهرة شوقا اليك وقلب بالغرام شجي
اصبحت فيك كما امسيت مكتئباً ولم اقل جزعاً يا ازمة انفرجي
اهفو الى كل قلب بالغرام له شغل وكل لسان بالهوى لهج
وكل سمع عن اللاحي به صمم وكل جفن الى الأغفاء لم يعج
عذّب بما شئت غير البعد عنك تجد أوفى محب بما يرضيك مبتهج

وقوله حين يتحدث عن الجمــال الآلهي الذي يتجــلى في كل الاشياء الجميلة

تراه ان غاب عني كل جارحة ... في كل معنى لطيف رائق بهج
في نغمة العود والناي الرخيم اذا ... تألفا بيت الحان من الهـزج
وفي مسارح غزلان الخمائل في ... برد الاصائل والاصباح في البلج
وفي مساقط انداء الغمام على ... بساط نور من الازهار منتسج
وفي مساحب اذيال النسيم اذا ... اهدى الي سحيراً أطيب الأرج
وفي التثامي ثغر الكاس مرتشفا ... ريق المدامة في مستنزه فرج

وقول انور العطار :

يا آلهي طيف العفاء يناجيك ... ونجواه أنـــة تتصعـــد
غاب لما دعاك عن وهدة الاثم ... وعن طينة من الأثم اوهـــد
أي الطافك العذاب تجلى ... اي آلائك العظام تعـدد
حفل القلب بالتقى فتصفى ... وجلاه الهدى فصلى ووحد
وَكلي بهجة وحبي لحن ... وابتهالي الغالي نشيد مقصد
يا إلهي عنا لوجهك وجهي ... وفؤادي من طول حمدك معبد
انا في كوني الصغير صلاة ... وسعت كونك العظيم المجود
انا في هيكلي اللهيف دعاء ... فاض من سرك اللطيف الممجد
ساهد الجفن خاشع القلب باك ... ذاهل الروح مستهام مشرد
أرقب الفجر في غلائله البيض ... وقد شف عن غبار مبدد
جدول رائع يرف من النور ... وامواهـه تكـاد تورد
غرق يملأ القلوب ابتهـالاً ... وسنا يملأ النواظر عسجد

وقول قيس بن ذريح :

ولولا رجأ القلب ان تعطف النوى
لما حملته بينهن الاضالـع

له وجبات اثر لبنى كأنها شقائق برق في السحاب لوامع
أحال علي الهم من كل جانب ودامت فلم تبرح علي الفواجع
اقضّي نهاري بالحديث وبالمنى ويجمعني بالليل والهم جامع
نهاري نهار الناس حتى اذا دجا بي الليل هزتني اليك المضاجع
لقد رسخت في القلب منك مودة كما رسخت في الراحتين الاصابع

اما ان يشعرك ذلك الغزل الحوماني بما تشعر به عند قرأة هذا الشعر الصوفي والوجداني الخالص .. فهذا مما لا يكاد يظفر بـه مستقرىء ذلك الديوان الجديد : ودونك هذه المقطوعة وهي من ابرع وافصح ما قرأته من ذلك الغـزل الذي نشر بعنوان (صوفية الحب)

كلما أدنيت منها جسدي لصقت بي وتلظت شفتاها
فكأن الجمر احمت دمهـا فذوت عينين واحمرت شفاها
سألتني ما ترى قلت فمـاً حققت عيني به اسمى رؤاها
وشفاهاً يترضبن دمـي ويلوّن المنى حتى اراها
وهوى يصعد بي حتى ارى ملء عيني مع الله إلهـا
تخفق الارواح في هيكـله ويعفرّن حواليك الجباها

فهل يطربك منها غير هذه الرّنة الموسيقية وغير هذه المغازلة المسرحية ?? واين هذا من أثر المحبة التي احترق بنارها الصوفيون والوجدانيون ؛ فصوروها في بيانهم بما صوروه من فنـاء النفس ومحو كل أثر لارادتها ونزعاتها الشخصية : وتلاشيها في ذات من

تحب تلاشي الماء بالسكر ؛ او تلاشي يزيد بن الطثريه في قوله :

بنفسي من لو مرّ بردُ بنانه   على كبدي كانت شفاء انامله
ومن هابني في كل شيء وهبته   فلا هو يعطيني ولا انا سائله

الفلسفة المعقدة

ثم إذا كان هنالك شيء آخر في هـذا الغزل الحومـاني الحديث فهو هذه الفلسفة المتكلفة او هذه الفذلكة (المعقدة) في تمطيط بعض المعاني الغزلية القديمة التي كان يتجنى بمثلها على القراء ويتيه اعجاباً في ديوانه الاول ثم اصبح من جراء النقد الصريح يتورع ان يمهرها باسمه الكريم ،فإن هذه الفذلـكة قد جنت على هـذا الغـزل جناية كبرى وجعلت اكثر مقاطعه جسما بلا روح او لفظاً بلا معنى كما تركت السامع يتيه في ظلمة داجية من الابهام والغموض لا يهتدي إلى كثير من مذاهب الشاعر واغراضه ولا يقف على شيء من المنطق المقنع والصور المؤثرة وإنني لاجتزء عـن الشرح والتعليل بإيراد بـعض الشواهد على ما ازعمه واذهب اليه :

فمن ذلك هذه القطعة التي خصص بها مجلة العصبة الاندلسية :

من ذا يقول معي : عينان ملؤهما   دمع هما غذتا عينيك بالحور
قولي معي : لم يذب قلب شقيت بـ   ـه إلا ليسقي ما تجنين من ثمر
اخليت عيني مـن دمـع يمدهما   بالنور من فمك المحشو بالدرر
وأنضرت فاك اصال شربت بهـا   روحا تلظى به خداك في السحر

في عين حواء صبح درجت قبلي عينيك بين يديه من دم الخفر
لا تجزعي وتلقيهن باسمة للطير يصدح غريداً على الشجر
كالشاعر الطفل يمشي في خميلته وينشد الفجر حواما على الغدر

التسامح في الوحدة والانسجام

وقبل ان انهي الكلام عن الشعر في هذه الطبقة ارى من الواجب علي تجاه الادب ان الفت النظر إلى هذا التسامح من شعرائها في ما كان يتسامح به المتقدمون من انسجام الصور الشعرية وبعد الشقه بين ابيات القطعة الواحدة ، ثم إلى هذا التفريط فيما تعودوا التفريط به من وحدة الموضوع والغرض ، كما يتضح لك من شعر الشيخ سليمان وشعر الحوماني وخصوصا في قصائدهما الكبيرة كسينية الحوماني التي نشرت مع سينيتي البحتري وشوقي وخصصت جائزة سنية للفائز بتحليل القصائد الثلاث والمقابلة بينها .

فإن هذا التسامح وهذا التفريط يشوشان على القارىء انتباهه ويضللان شعوره ويصرفانه عن متابعة القراءة . وليت شعري كيف يستطيع الشاعر ان يؤثر في ذهن القاريء اذا لم يسلك به في مجرى منطقي مستقيم ويأخذه في سياق معين ويرسم امامه وحدة فنية دون ما تعقيد او غموض او اضطراب . واذا كان لشاعر الفطرة في عصور البداوة والجهل عذره من الاكتفاء بتداعي الافكار والخواطر ووحدة الباعث للذكريات عن وحدة التأليف ووحدة الموضوع

والغرض ، فما عذر شاعر القرن العشرين في عصر النـور والثقافة والترف العقلي ، وقد مهدت له الابحاث الأدبية والمقاييس الفنية الطريق السوي الى مثله الاعلى ؟

انموذج من سينية الحوماني

ربما انضج التجارب درسي لثلاثين من سني وخمس
ولقد تكشف الغطاء ليومي عن مآتي غدي بصيرة أمسي
قد لفظت الحياة يشقى بها الحر وتثرى منها يدا كل جبس
ايها ذا الاديب : صفك صفي تحت احداثها ودرسك درسي. الخ

واذا كنت ممن يحب ان يجهد فكره وشعوره دون ان ينتهي الى معرفة موضوع القصيدة وغرض الشاعر من نظمها. فاستمر على قراءتها من البداية الى النهاية وامعن النظر في ضبط السياق او في توحيد الفكرة والموضوع او في ترتيب الصور والمعاني الشعريه على نسق طبيعي متسلسل في مجراه نحو غاية واحدة ؛ فإنك تضطرب وتضطرب أثناء ذلك بين ان يكون غرض الشاعر من نظمها ان يصور لنا الخطط التي يجب ان نتمشى عليها في بناء المستقبل كما يهيئك مطلع القصيدة هذا :

ربما أنضج التجارب درسي لثلاثين من سني وخمسِ
ولقد تكشف الغطاء ليومي عن مآتي غدي بصيرة أمسي

او أن يصور لنا (زهده) في الحياة كما يعدك البيت الثالث الى

استقبال مثل هذه الصور :

قد لفظتَ الحياة يشقى بها الحر ونثوى منها يدا كل جبس

ولكن بينما انت تتوقع منه هذا المذهب او ذاك اذا به يقول.

كم اطوف البلاد شرقا وغرباً فوق ظهرين من سفين وعنس

أي جد يغريه بي ؛ اي عز تتوامى اليه اية نفس . .

فتتوسم بانه سيحدثك عن أسرار عظمته ؛ وعن الجهود التي بذلها في بناء هذه العظمة ، فإذا هو يميل بك الى انتقاص اوضاع الشام والعراق بقوله :

فاذا القول فيهما دار ملك : واذا الفعل ثمَّ دارة فلسي

لا يغرنك في الشآم رجال موَّهو بالرياء وجه الفرنسي

ثم بينا تحسبه يريد ان يترسل في المحاسبة ؛ بعد ان اجهده البث كما يتراءى لك من قوله :

همتي همتي . ففيما نواحي في طلاب العلى ونفسي نفسي

احرقوني بعد الممات اذا لم يُبْن من دارة الكواكب رمسي

اذا به يقول بعد ذلك وبدون فاصل ؛

اتحدى إصلاح شعبي ؛ ولما تَعدُ كفّاي لعبــة المتخسي

لِمَ لَمْ يسمعوا وهم غير صمّ لمَ لم ينطقوا وهم غير خرسِ ؟

ثم يعود على اثر ذلك الى البث والشكوى بمثل قوله :

فاعجبوا للاديب وهو اديب وارداً في حياته ورد خمسِ !

وبينا تسمعه يندد بالاصدقاء بمثل قوله :

لا الوم الصديق ان يتناسى سالفات العهود فالبعد يُنسي

اذا به يطفر لمهاجمة الملوك فيقول :

شرّ ما في الانام نعمى مليك   هي في شعبه عصارة بؤس

ثم لا تكاد تصغي الى قوله :

قل لمن حاول الزعامة فينا   بجدا نائل وشدة بأس

اخفقت بعدكم شجاعة عمرو   وندى حاتم وحكمة قسِ

حتى تراه يعقب على هذا الكلام بما لا يلتئم معه في مساق او فحوى

أفأستعرض الحياة بنويورك   وفي لندن وغوطته مرسى ؟

ما الذي تبلغ البراعة في عِدّ   السّها وهي في انامل خمسِ ؟

وهكذا تراه يدور بك ويمضي في تنقلاته من فكرة الى فكرة ومن جو الى جوّ بغير ما علاقة او مناسبة قوية تقتضي الانتقال . وتحفظ السياق وتحدد الغرض ؛ وتصون الوحدة الفنية وتستدرج الحس والشعور والفكر الى التأثر بما تأثر به شاعرنا ؛ او الى الاقتناع بما ذهب اليه من غاية وقصد (١)

ولعل الذي طوح بالشعر العاملي الى هذا الاضطراب والتكلف في اقحام الصور والامثال والى هذا التفكك والغموض هو مـا كان شائعا في عرف المخضرمين من الامتداح بالتفنن وطول النفس ، فقد كانوا ـ لاجل ذلك ـ يسترسلون في القصيدة الواحـدة

---

(١) ذلك رأي في شعر الحوماني منذ سنوات خلت اما اليوم فقد تطور شعره بفضل الانتقاد واصبح المختار منه في طليعة ادبنا المعاصر

ثبات كل ما يسنح لهم من خواطر ولعرض كل ما يستطردون اليه من صور او ينتهون اليه من خيال دون ان يحتاطوا في ذلك لما يناسب الغرض والمقام ويطابق الامكان والواقع او يحفظ الوحدة ويضبط السياق ثم يرضي الذوق والمثل الاعلى في الفن والجمال .

حالة النثر الفني

اما نثرهم فقد ابتدأوا فيه على طريقة الخوارزمي المسجوعة كما يبدو من بعض رسائلهم القديمة ، ثم تطور بتطور الحياة الثقافية وبتطور الافكار والاذواق الادبية حتى استقروا به على هذا النمط الخاص الذي يراعى فيه الترتيب والاحتراز من الحشو والفضول ووضع العبارة بطريقة تناسب الغرض والمقام في قوتها وايجازها او سهولتها وتبسطها من غير ما تأنق في الوشي او تماد في الخيال ذلك بان اكثر الموضوعات التي مارسوها هي مواضيع علمية لا تقضيهم اكثر مما يقتضيه البحث العلمي من ترسل وصفاء ، وهو في جملته بليغ الاداء واضح القصد خالص من شوائب الغرابة والابتذال الا اذا تناول بعض الافكار الجديدة التي لم يسبق لهم ان مارسوها ولا هي من الوضوح في اذهانهم بحيث يسهل عليهم الاستقلال في بناء هيكلها وترتيب اجزائها وتمهيد الطريق الى استقصاء صورها وبيان مميزاتها ، فانه عند ذلك يرتبك ويضطرب في منطقه واسلوبه ولا يخلص ــ في اغلب المحاولات ــ الا باجهاد العبارة او اقتضاب

الفكرة ، او الاسهاب واخذ الموضوع من ايسر نواحيـــه وعرضه بصورة سطحية ساذجة لا تناسُب بينها وبين الثقافة الواسعة والنظر البعيد ، ولعل هذه الخصائص مع ما يكتنفها من صحة اللغة ودماثة اللهجة وهدوء العاطفة اظهر ما يمتاز به نظمهم ونثرهم . واليك نموذجاً من نثرهم هذه الجملة للشيخ احمد رضا من مقال :

التقية

« فطر المرء على حب المصلحة ودفع المفسدة وتأصلت فيه محبة الذات فهو يجتهد لحفظ كيانه وبقاء ذاته وترقية شأنه وقد اختلفت أهواء الناس وميولهم فتقسموا احزابا ومذاهب تضاربت غاياتهـــا واختلفت مقاصدها ثم لعبت السياسة دورها فزادت الشقة بعداً واتسعت مسافة الخلف بين الفرق فكانت تتنازع السلطة والمقام ولكنما العزة للكاثر والحق للقوة ، فانصرف كل فريق لانماء القوة في حزبه وحرص على الكثرة في قومه لينال بذلك الرفعة والمقام الاعــلى ويستأثر بكرسي السلطة ويتسنى له نشر مبدئه ، واصبح كل ذي غاية يحاول جر الناس اليها ليسعف في الوصول اليها حتى اذا علا شأنه واستضعف القوة المناوئة له عمل على ملاشاتها ليستمرىء عيشه هنيئاً بلا منازع ، وحيث رأت الفئة المغلوبة على امرها ضعفها عـــن المقاومة كتمت امرها وأسرّت دعوتها واتقت عدوها الى يوم يساعدها الحال فتظهر . هذه هي التقية

ان التمسك بحبال التكتم للفئة المستضعفة في مكان كثرت عليها فيه العيون وعظمت المراقبة وكبر النكال ، هو امر طبيعي لما تؤيده العادة ويقبله العقل لتحفظ به كيانها حتى تجمع اليها امرها وتصدع يوم ترى مندوحة بما تؤمر

ان الفئة الغالبة اذا استبدت بمحو الفئة المغلوبة وجردت سيف سطوتها وسيطرتها من غير انصاف ترجع اليه ولا عدل يكنفها ولم تكن الفئة المهضومة لمت شعثها بعد ولا تم لها تأسيس كيانها

اذا كان الامر كذلك ــ وظهرت هذه الفئة المغلوبة في حالها هذه كان ظهورهـــا نعم الظهير للغالبة عليها وكان ذلك الظهور مسعف للمستبدة بمعرفة المناوىء فتتعقبها قتلا حتى تأتي عـــلى آخر ابنائها الا من اعتصم بحبل التقية منهم وتكون حينئذ تلك الفئة المغلوبة قد هدمت كيانها بيدها وعد في عرف السياسة ظهورها هذا تهوراً لا تحمد عليه

لو اعلن اولو الحق حقهم غير معتصمين بحبل التقية حيث يمـــد عليهم الاستبداد جناحه وليس لهم قوة المغالبة والدفاع ، لوضعوا سيف المستبد على رقابهم ودعوه الى قتلهم فاذا افناهم ذهب حقهم شهيد تهورهم حتى يعفى اثرهم وكان عملهم هـــذا وان كان نصرة للحق ولكنه من حيث المآل خذلانا له » .

وجهتهم في الاصلاح والتجديد

على انك ترى مما يكتبون وينظمون ان وجهتهم الى الاصلاح السياسي والتجدد الاجتماعي اكثر منها الى الاصلاح والتجدد الادبي، وان المتتبع لآثارهم البيانية لا ينتهي الى مقال ادبي ينتقدون فيه الاساليب العقيمة والاوضاع المزيفة ويوضحون الخطط القويمة ويمحصون المقاييس الصحيحة التي يجب ان تتبع وتراعى في النظم والنثر، اللهم ما خلا مقالا قديماً للشيخ سليمان ظاهر في آداب اللغـــة العربية (١) حاول فيه شيئاً من هذا ولكنه لم يتعدّ فيه مذاهب المتقدمين كابن قتيبة وابن خلدون ولا اعتمد على غير النقل والاستشهاد بالاقوال المأثورة، ثم بعض مقالات لسواه لم يتعرضوا فيها لغير السرقات الشعرية ولما اختل من اوزان وقواف او شذ عن القياس مـــن تراكيب او ثقل على السمع من الفاظ وجمل أما الفكرة واما بقية العناصر الذاتية للادب من عاطفة وخيال ومنطق فلا ترى لهـــا في محاولاتهم من الاهتمام ما يوضح معالمها ويصلح دخائلها بنظرة تحليلية محاولة انتقادية.

عذرهم في التجدد الادبي

وقد يكون عذرهم في ذلك ان التطور الاجتماعي في كل زمان

---

(١) العرفان المجلد الخامس

ومكان يتقدم التطور الادبي ، وان التجدد الادبي في ايام نهضتهم لم يكن له معالم واضحة ومناهج مستقيمة ليتقوا بها على ضعف المقاييس القديمة ، فقد كان طلابه الى عهـد قريب في مصر وسوريا والعراق يضطربون في تحديد المراد منه أهو في ترخيم الالفاظ وترقيق الاساليب وتنويع الاوزان والقوافي ، او في وصف الرياض والمناظر الطبيعية ، او تصوير الحوادث السياسية وضرب الامثال وفلسفة العبر واستنهاض الامة وانتقاد اوضاعها الاجتماعيـة ، او في وصف المخترعات العصرية واستبدال المواضيع القديمة بموضوعات جديدة ، الى غير ذلك مـن مقاصد وافتراضات بعيدة عما يقتضيه التجديد في جوهره وحقيقتـه ، فان الترخيم والترقيق وتنويع الاوزان والقوافي ، وتغيير المواضيع لا يجدي شيئـاً في تطور الادب اذا لم تستقل الافكار وتتجرد الاخيلة وتنسجم الصور والمعاني وتصدق العاطفـة والشعور ويخلص البيان بطبيعته من اعتساف الحذلقة والاغراب ، والتكلف والا كان التطور للتقليد لا للادب في جوهره وحقيقته .

اثرهم في النهضة العاملية

وعلى كل فحسبهم اثراً وفخراً ان كانوا اول من ارضى القـديم وأنصف الجديد ثم اول من تشجع وعمل في هذه (البيئة) عـلى تحرير الكتابة من قيود الصناعة اللفظية التي شب عليهـا الجميع ، فأحسنوا الاسترسال بها على مقتضى السليقة والطبع بعد ان غلبهـا السجع وغلب عليها التعمل ، وان كانت لهم هـذه اليد الطولى في

تطور الحركة الفكرية والادبية والاجتماعية والسياسية ، والاخذ بيد كل من اخلص لمستقبل امته ونهضة بلاده .

التأليف والمؤلفات في هذا الدور

أما التأليف في هذا الدور فانه قد كثر وكثر المتطفلون عليه وخصوصاً في المواضيع الدينية والجدلية والتاريخية ، ولكنه على علاته لم يزل يضطرب في وضعه ومنطقه بين الاساليب القديمة والحديثة ، لتغلب المؤلفين الذين انقطعوا للقديم في دراستهم واحتذوا — في التأليف — طريقة من سبقهم على الذين تأثروا بالاساليب الجديدة وساروا على قبس من نورها .

اعيان الشيعة

ولا ابالغ اذا قلت ان انفس كتاب في موضوعه وفائدته واستقصائه يمثل الفئة الاولى خير تمثيل مع الحرص على الاسترسال والوضوح في عبارته وعلى الترتيب والتنسيق في تبويبه هو كتاب (اعيان الشيعة) للعلامة الكبير السيد محسن الامين وقد طبع منه في دمشق ١٦ مجلداً .

وأما ما يمثل الفئة الثانية ويتفق مع تطورها الفكري والادبي فان اكثره الى الآن لم يتهيأ له النشر لنطلع عليه الاطلاع الذي

يبيح لنا الحكم المطلق او الموازنة بينه وبين غيره من الكتب القيمة ، ولعل انفس ما عرفته من هذه المؤلفات هو :

متن اللغة

للعلامة الشيخ احمد رضا عضو المجمع العلمي العربي في دمشق ، وهو قاموس عام شامل بالغ فيه المؤلف في اختيار المصادر الموثوقة وفي ترتيب مواده ومما يمتاز به عن سائر كتب اللغة القديمة والحديثة كونه اكثرها احاطة بالمفردات واوفرها دقة في شرح معانيها ووجوه استعمالاتها : وكونه يشتمل على المفردات الحديثة المولدة والمعرّبة التي أقرتها المجامع اللغوية في البلاد العربية او التي توصل اليها اجتهاد مؤلفه عن طريق احياء كلمات قديمة يتناسب مدلولها مع بعض المسميات التي انتجتها المدنية الحديثة :

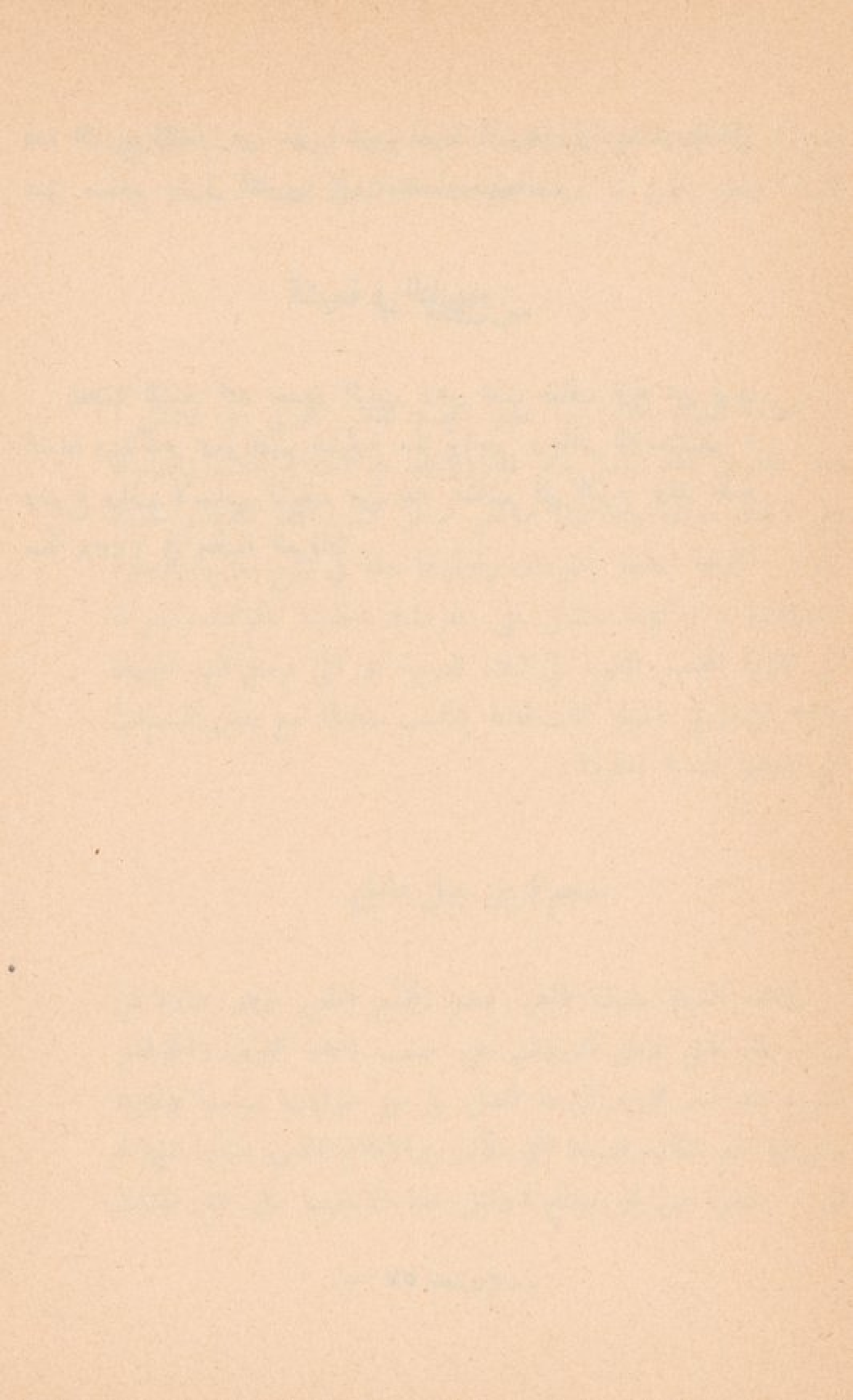
معجم قرى جبل عامل

للعلامة الشيخ سليمان ظاهر عضو المجمع العلمي وهو عبارة عن تاريخ عام لجبل عامل قد رتب على حسب اسماء القرى والحواضر فشرح عند اسم القرية كل ما اتصل بها من حوادث سياسية وأدبية وعمرانية مع اشارة فصيحة الى الأسر والاعلام الذين نشأوا فيها ثم الى ما خلفوه من اثر صالح ، ولعل هذا الاسلوب في جمع اشتات

هذا التاريخ المبعثر هو خير اسلوب لضبط اصوله وترتيب فروعه على نسق مستقيم يشوق القارىء الى استقصاء صفحاته .

الشيعة في التاريخ

للعلامة الشيخ محمد حسين الزين وهو بحث ضاف نزيه عن فرق الشيعة وعقائدهم ومواقفهم الشهيرة مع تراجم رجالهم اللامعين ، وشرح واف لأسباب تشيعهم من بدء نشأتهم الى اليوم وقد طبع سنة ١٩٣٨ في مطبعة العرفان .



دور التجديد والترف الفني

... ويمكننا بكل اطمئنان ان نذهب الى ان هذا الدور قام على ركن من الثقة بكتاب (العرفان) الاول ، وعلى دعائم من التقدير لما كانوا ينشرونه ، وقد كان لهذه الثقة ولهذا التقدير اثر كبير في بعث الناشئة على طلب التعليم في المدارس الحديثة العالية ، وفي حمل الشباب المتأدبين على تتبع كل جديد من الكتب المؤلفة والمترجمة ومن الصحف العلمية والادبية وعلى التشبع من ابحاث قادة الفكر ومحاولة التجرد في الرأي والذوق الشخصي من كل تقليد ومحاكات .
كما انه كان لانتشار الصحف وتحمس الشبيبة العاملية النجفية لكل جديد من الادب اثره الفعال في تجاوب افكار النابهين وفي تيقظ شعورهم وتلطيف اذواقهم واذكاء روح النهضة والطموح الى الحياة الحرة والاستقلال بكل معنى من معانيه الشخصية والاجتماعية

الطبقات الثلاث

وباستطاعة الباحث اذا توسع في نظره لهذه الكتل الادبية التي تتألف من هؤلاء الشباب الذين تثقفوا بثقافة عربية خالصة وهؤلاء الذين تثقفوا بثقافة غربية مشوبة ، واولئك الذين شبوا على التأثر بهؤلاء وهؤلاء — باستطاعته ان يقسم هذا الدور ، دور التجديد والترف ، الى طبقات ثلاث :

الطبقة الاولى

١ — طبقة تعتمد في ادبها على الفطرة السليمة ، ثم على ثقافة نجفية كل ما تيسره للطالب الطموح دراسة الآداب العربية والعلوم الاسلامية على الطريقة القديمة ثم الالمام بالصحف والكتب الادبية الحديثة التي ألفها وترجمها ادباء العرب في مصر وسوريا والعراق واميركا. ثم الاتصال بالطبقات الممتازة في طموحها ونظرها الى الحياة. وان في درس آثار النابهين من ادباء هذه الطبقة كالاساتذة : صدر الدين شرف الدين ، حسين مروة ، هاشم محسن الامين ، ما يوضح خصائصها الادبية ويزيد القارىء استبصاراً بمميزات الباقين

الخصائص الفنية

وقد يكون اظهر ما تمتاز به من خصائص بيانية حرصها على

صدق التعبير وانتزاع الصور مما تتأثر به النفس من حوادث واجواء ومشاهد ومواضيع ، ثم مبالغتها في توقي الغامض والمبتذل من الالفاظ والتراكيب ، وفي ايثار القوة والرصانة ما وجدت الى ذلك سبيلا . فهي مع تجددها وتأثرها باساليب التفكير الحديثة ومعالجتها لكثير من الموضوعات والنواحي الأدبية على وجوه لم تكن معروفة عند من تقدمها من الادباء العامليين ، ما برحت تتأنق في صياغة عباراتها اكثر مما تتعمق في نحت معانيها ، وربما كانت في احكام الاسلوب أبرع منها في احكام الفكره واستقصائها من سائر وجوهها شرحاً وتعليلا ، اللهم ما خلا بعض الافراد في بعض المواضيع التي وقفوا فيها الى الكمال من سائر وجوهه . ولذا جاء أدبهم في أرفع مصاديقه ، مطرد السلك ، محكم السبك ، سائغ الصور ، بعيد الغور ، لا يشوبه ضعف ولا قلق ولا افتعال .

واليك نموذجاً من أدبهم هذه الجملة من مقال الاستاذ حسين مروه في تحليل قصيدة غزلية لشاعر العراق محمد مهدي الجواهري :

« لكأني أنظر الى هذا الشاعر الان تتململ في سامر حالي المفاتن ، تتعرى فيه المغريات على صور من العري تطل من بعض جوانبها (آلهة الشعر) وفي عينيها شعل مشبوبة ، وتطل من جوانبها الاخرى (آلهة اللذة) وفي شفتيها ضرام من الاشواق يتوهج توهج الكأس التي بين يديه ، فيثور الشعر في رأسه وتضج الشهوة في اعماقه ، وتصرخ اللذة في عينيه ، ثم يثوب الى رشده

قليلا فاذا السامر الطروب يبتسم حواليه ويتشوق الى الشاعر تشوقاً يحسه في قرارة شعوره احساساً جارحاً فيندفع قائلا :

جربيني من قبل أن تزدريني واذا ما ذممتني فاهجريني
ويقينا ستندمين على انـــك من قبل كنت لم تعرفيني
لا تقيسي على ملامح شكلي وتقاطيعه جميع شؤوني .. الخ

وينتهي الشاعر من هذا المقطع الصارخ وفي نفسه بقية احساس حزين برغم هذه السورة التي تشع اشعاعــاً في كل كلمة من الابيات الاخيرة ، ثم تعروه انتفاضة شعرية يزهى فيها بنفسه لانه ضد الجمهور في عقله وتفكيره وعقيدتــه وضده في تذوق الحيـاة ومتاعها ويأبى على نفسه ان ينخدع بتقاليد الناس وان يداجيهم ، لان مداجاتهم — وهو ابن العشرين — تحرمه لذاذة العشرين

وتشب هنا في صدره لوعة عارمة فيلتفت التفاتة يائس متخاذلة قـائلا :

أخذتني الهموم الا قليـلا ادركيني ومن يديها خذيني

ويرجع بعد هذه الالتفاتة الملتاعة ليستحث (عروس خياله) ان تدرك أمنيته قبل ان يطوى في ظلمة الابد : ويجلأ هنا الى الاغراء الطريف العذب مليء النفس بجـمال الطبيعة مصوراً أدق التصوير حيرة الفكر فيما بعد الموت مستعرضاً صوراً من الحيـاة الاخرى ليست هي من ابتكار خياله فيما نعلم ، ولكنه استطاع ان يلونها ابرع تلوين وان يمزج ألوانها بذائبٍ من سحر الاغراء نفاح الشذى .

وتتملكه بعد هذا المقطع نشوة تكمن فيها رغبة ثائرة ولكنه ينسج فوقها من عذوبة روحه نسيجاً يكاد يوهم ان الشاعر يملك هدوء أعصابه فلا يقول — ما يقول هنا — الا مجانة ودعابة وحسب ثم يفيض بهذه المجانة الطريفة كل الطرافه الزاخرة بالصور (المكشوفة) المغريه التي يتجلى فيها خيال الفنان المبدع واحساس الشاعر المرهف ، وذوق الاديب الموهوب .

ويستفيق الشاعر — بعد هذا كله — من نشوته وكأن جذوته قد انطفأت فجأة كما تنطفيء جذوة الشفق الاحمر فاجأه المغيب ، فاذا هو يفاجئك بآخر بيت من القصيدة مستجمعاً قواه متنهداً تنهدةً عميقة بعثها صدر مكدود معتذراً اليك مستغفراً (عروس خياله) هذا العبث الماجن الخليع اذ يقول :

ما أشد احتياجة الشاعر الحسا س يوماً لساعة من جنون

أرأيت كيف نقلك فجأة من دنياه تلك التي افتنّ في تصويرها أيما افتنان الى هذا البيت الذي يخلق في ذهنك دنيا جديدة تتمثل فيها الشاعر مثقلا بالاحاسيس المرهقة تصبها عليه الحياة صباً فينوء بها ويحاول الانفلات من اعبائها فيظل يتربص ساعات من العمر حتي تحين له فرصة من الفرص فيلقي احماله عن ظهره ويفيء الى ظل وارف ندي يمرح ويرتع بين أحضانه كطفل غرمدلل بين ذراعي أم طروب لعوب »

أثرهم في النهضة الادبية

على ان الانصاف يوجب علينا قبل ان نمضي قدماً في البحث ، ان نصرح بأن جل أدباء هذه الطبقة ومن تأثر بنزعتهم من الشباب قد كانوا بدورهم أوسع أثراً من غيرهم في تطور الحركة الفكرية وتحوير الاساليب البيانية ، واشد إقداماً على مجـابهة الاوضاع الرجعية ومحاربة العناصر الضارة والتقاليد العقيمة . ذلك بان أكثر أبناء هذه الطبقة قد نشأوا في أحضان الارستقراطية العلمية ونشأة رجعية ، فكان لهم من تاريخهم الارستقراطي ما يزيـدهم جرأة وصراحة في اعلان فكرتهم وفي المدافعة عن مبادئهم . وكان لهم من حرمة أسرهم ومن مكانتها في الاوساط الشعبية ما يصونهم من هوس المغرورين وصلف المفتونين بمنزلتهم الاجتماعية من العلمـاء والزعماء والادباء الجامدين . ثم كان لانتفاضهم وثورتهم على مـا نشأوا عليه من أفكار عقيمه وتقاليد رجعية أبلغ الاثر في افحام المتعصبين للتقاليد البالية وخذلان المحافظين على الاوضاع الرجعية ، وفي تشجيع الناشئين نشأة جديدة والمتحفزين للحياة الحرة في هذه البيئة المنكودة الطـالع ، اضف الى هذا كله ان الظروف بتطوراتها السياسية والاجتماعية والثقافية جاءت كلها مبررة لمطامحهم مؤيدة لنزعاتهم .

الطبقة الثانية

٢ ــ وطبقة قد أخذت عليها الثقـافة الحديثة كل باب وكل

سبيل حتى اصبحت وليس لها من الايمان بتراثها الادبي ما يحملها على احترام القديم او تأثر وجهته ، وانما غلبها الاكبار للآداب الاوربية من افرنسية وانكلنزية ، واستبد بها التأثر بأساليبهم في التصوير والتفكير ، والتعبير الى حد كاد اكثر افرادها – لولا ان يمسكهم التعصب لتاريخهم ولقوميتهم ويروض السنتهم الاتصال بالخاصة من اصحاب اللغة الفصحى والاسلوب الرصين – ان يضطرب معه، بيانهم وتلتوي أساليبهم وتكون لغتهم اقرب الى اللغات العامية والاعجمية ، – منها الى العربية الفصحى (في ارتباك العبائر وابتذال الالفاظ وتشويش الصور والتباس المعاني – وذلك لاضطراب ملكاتهم الادبية وعقائدهم الفنية بين اللغات والثقافات والآداب المختلفة الاساليب والاتجاهات والخصائص :

مذاهبهم الادبية

اما مذهبهم في الحياة الفنية فان اظهر ما فيه (اذا استثنينا منهم الاستاذ كامل مروه والسيدة وداد سكاكيني) ميلهم الطبيعي الى رسم شتى العواطف والآراء الادبية وتصوير مختلف الاهواء والازمات النفسية ، ثم قلة اهتمامهم بتطور النزعات القومية والمشاكل السياسية والاوضاع الاجتماعية التي باتت الشغل الشاغل للجمهور . ونظرة شاملة لآثار اللامعين فيهم كالسيد عبد اللطيف شرارة ، والسيد

خليل هنداوي (١) والسيدة زهرة الحر .. تكفي للدلالة على ذلك

الخصائص الفنية

ولعل اظهر ما تمتاز به هذه الطبقة من خصائص هو الدقة والاناقة في تلوين الصور وتنويع الأخيلة وترويض المعاني الغريبة . ولهذا تبدو افكارهم واخيلتهم على الاجمال اطرف وادق واروع من لغتهم وبيانهم مما يبرر القول بان معانيهم تزين الفاظهم ، اللهم الا من شذ من الافراد الذين ـ بممارستهم الآثار العربية البليغة الاسلوب الفصيحة اللفظ ـ صحت لغتهم واعتدلت اساليبهم وسما بيانهم في اروع مظاهره وادق مناحيه عن الابتذال والتعقيد والتنافر ، واصبحوا مناط الامل والرجاء في تقدم النهضة الفكرية وقيادة الناشئة الادبية الى هدفها الاسمى بما اتقنوه من لغات مختلفة وأوتوه من ثقافات متنوعة تساعدهم على التوليد والتطور وتوفر لهم اسباب الخلق والابداع في كل نوع من انواع الادب . فان الثقافة البسيطة قد اصبحت اليوم لا تستطيع ، في بناء النهضة العتيدة ، ان تنير الطريق لحرية التفكير وتمهد السبيل لتجديد الحياة الفنية وتقديم الغذاء الكافي والمثال الصالح للاجيال المقبلة .

---

(١) هذا رأينا منذ سنة ١٩٤١ اما اليوم فقد تطور اعتقادنا بتطور افكار ادبائنا وتطور اثارهم الادبية :

واليك نموذجاً من ادبهم : هذا الفصل من مقال قصصي للاستاذ عبد اللطيف شرارة يرد به على بعض هواة الادب الرمزي في لبنان :

« الساقية : عندما كنت في صميم الأزل نفذ النور الى اعماقي واستحوذ الجمال على فؤادي ، فتدفقت انغاماً عذبة وتساميت نشيداً رقيقاً كموجة رائحة غادية من مويجاتي الصافية ، ولكني لم اجد من يفهمني ، ولم التق شيئاً يصغي الي ، فثرت على نفسي وجريت ينبوعاً من الماء وصحبت هذا الوادي ، فغدوت ، والاشجار من حولي تتمايل ، والازهار تنشر العطر ، والطيور تذيع الغناء ، والضياء يحوم على ضفتي فينير عدوة الوادي ، وينعش اشجار الرابية ، ويلهب طيور السماء ، اصبحت شيئاً في الوجود ، كأني لم اكن من قبل شيئاً

احليا : ليتك بقيت كما كنت نشيداً يرف مع السحاب اللاهي يوقع رقص الغمام ، ويسكر افئدة الشهب ، ليتك لم تثوري على نفسك فقد كانت تشيع رواء في السديم ، وتكهرب الاثير ، وتفعمه بنشوة علوية تخف لها كواكب الجوزاء ، لقد قضيت على جمالك وعذوبتك حين تخيرت هذا اللون من الحياة ورضيت هذا الاسلوب للظهور !

الساقية : ولكنني كنت اغني ما لا يسمع ، وأقول ما لا يفهم فلا انا اعرف ما يجول حولي ولا الكون يدرك ما يخالجني ، كنت احب الزهر والزهر لا يعرف حبي ، كنت اناجي الطير والطير لا يفهم سري ، كنت اداعب النسيم ، والنسيم يسخر مني ، فكيف ارضى حياة خلت عن الحب والنجوى والدعابة ؟

احليا : كنت تغنين اعذب ما ينغم ، وتقولين اجمل ما يقـال والكون حولك سادر حائر ، يحس طلاوة مـا تنشدين ، ويتيه في سحر ما تقولين ، ولكنه عجز عن مبادلتك العاطفة واشراكك في العظمة ، فصرف عنك النظر واهملك كما يهمل المزكوم زهرة فـل مطلولة ، لقد كان اولى بك ان ترفعيه الى مستواك لا ان تـنزلي الى مستواه .

الساقية : لا تنسى انني جزء من الكون ، يجري على نظامـه وتطوف بي احلامه ، فـان احببته احبني وان انكرته انكرني ، وما هي الا ثورة هادئة انتزع بها النفس من غرورها لأذوب فيه ، واكشف مخبآته حتى اسيطر عليه فأستفيد منه وأفيده ، هـذا هو الربيع سله كيف كان وكيف سار » .

الطبقة الثالثة

٣ ــ وطبقة كل ما تعتمد عليه في ادبهـا هو الفطرة السامية والذوق السليم والاحساس المرهف . واما ثقافتها الادبية فبي مـن الالمام بما يحدث في البيئة ويشيع في المجتمعات ويذاع في الصحف السيارة من آراء وافكار ومذاهب ادبية وسياسية واجتماعية . ولئن تهيأ لغيرها من الادباء ان يتجددوا ويجددوا باشراق مـن التعليم العالي ووحي من الثقافة الاوروبية فان ابناء هـذه الطبقة لم يكن لهم بما يوقظ شعورهم ويلطف اذواقهم ويتوجه بهم هـذا الاتجاه

الطريف الذي ارتفع بادبهم الحي عن مستوى الآداب الرجعية ، غير ظروف بيئتهم وعوامل مجتمعهم وغير ملابساتهم واختباراتهم الخاصة .

ولا غلو فيما نذهب اليه من ان ألمع شخصيات هذه الطبقة هم السادة الشعراء عبد الحسين عبد الله ، موسى الزين شراره ، نور الدين بدر الدين .

خصائصهم الفنية

ولعل اظهر ما يميز ادبهم من خصائص فنية هو الوضوح ، والصدق ، والصراحة ، والجاذبية ، وان افكارهم واخيلتهم اشبه بلغتهم واساليبهم البيانية ، فكل منها طبيعي يساير الدارج والشائع في النوادي والمجتمعات الخاصة والعامه ، ليس فيها سوى السهل المألوف من الجميع فلا هي بالمبتذلة التي تند عن ذوق الخاصة ولا هي من العمق بحيث ترتفع عن طوق العامة في الفهم والادراك ، وقد يكون شعرها بما فيه من نقد صريح وسخرية لاذعة وترسل جريء في وصف كل ما يتأثرون به من شؤون قومية ونفسية ، اصدق صورة للحياة الاجتماعية في هذا الجيل وفي هذا العصر وفي هذه البيئة ، ثم اوثق شاهد على تطور الشعور وثورة الفكر .

ودونك هذه المقطوعة من شعر موسى الزين شراره في نقد فئة من رجال الدين

حسبت عامل في بلواه منفرداً إذ حرم الشيخ فيه رؤية الصحف
حتى سمعت وبعض الصحب اكد لي بان ذلك مأخوذ عن النجف
عجبت من لجنة الآثار كيف سهت عن عرض اشياخنا في معرض التحف؟

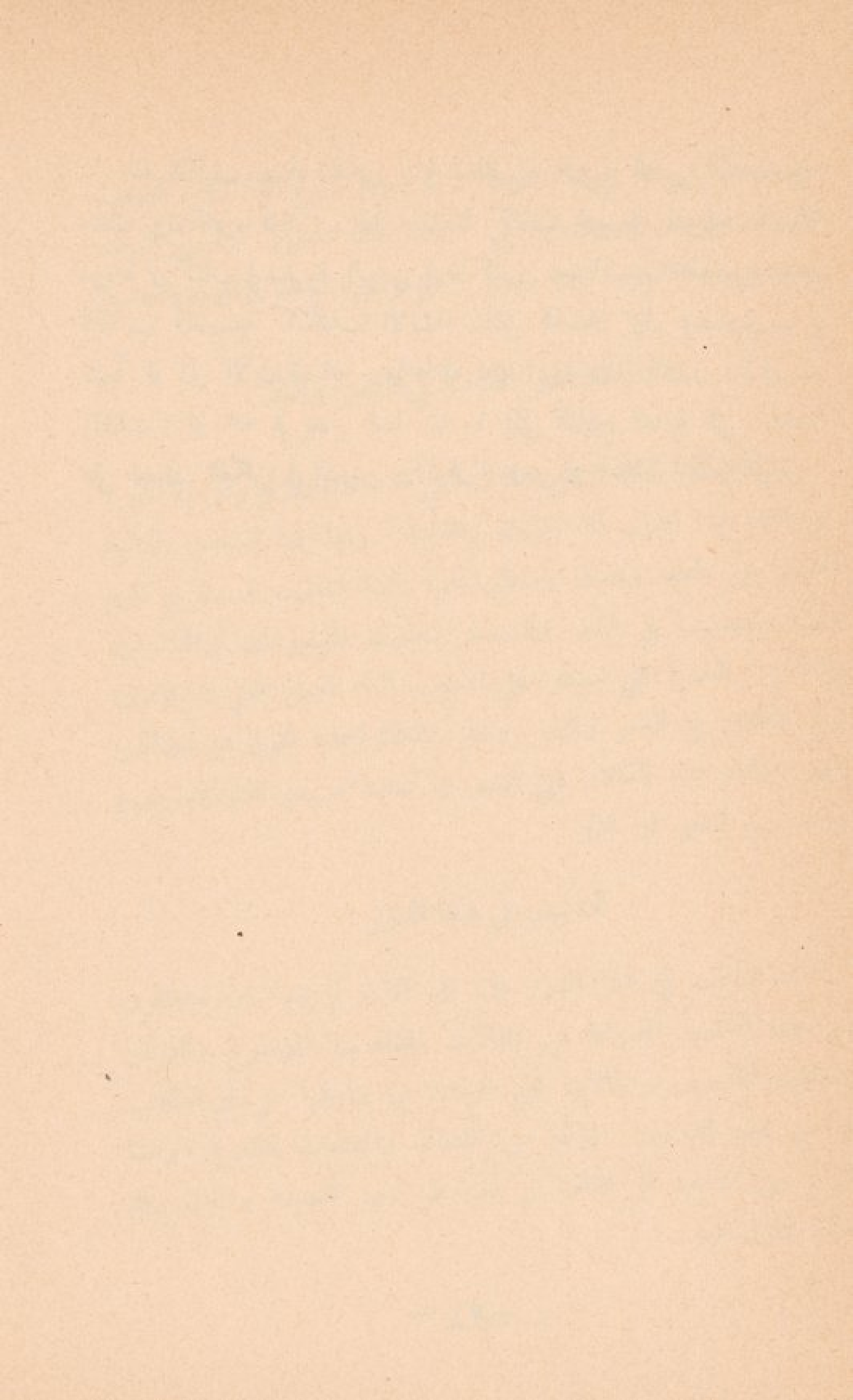
اتحاد العناصر الذاتية في الشعر والنثر

هذا ونظراً لان الشعر والنثر الفني لا يختلفان في رأي الاكثرية من ادباء هذا الدور الا بالوزن والقافية ، واما بقية العناصر الذاتية للادب من عاطفة وخيال ومنطق فانها انما تتفاوت قلة وكثرة وقوة وضعفاً في الشعر والنثر بتفاوت الموضوعات والمناسبات والحالات النفسية التي تسيطر على الاديب اثناء العمل الفني لا بتفاوت نوع الكلام بين الشعر والنثر . ونظراً لذلك اجملنا القول عن خصائص الشعر والنثر عند الكلام على ادبهم واكتفينا من الشواهد بنوع واحد من الشعر او النثر

التأليف في هذا الدور

اما التأليف في هذا الدور فانه الى الآن لم يعدُ ان يكون من هذه الكتب المجموعة من المقالات المختلفة الموضوع والغرض باختلاف الظروف والحالات التي اوحت بها وأملتها على قلم الكاتب او من هذه الدواوين المؤلفة من القصائد والمقطعات الشعرية ، وهذا النوع من التأليف لا يختلف في جملته عن ادب القصيدة والمقال وقد فصلنا القول فيه .

اما التأليف بمعناه الخاص وكما يتطلبـــه الروح العلمي الرصين في منطقه وتفكيره فانه ــ اذا استثنينا كتاب نحن في افريقيا للاستاذ مروه و كتاب (عبقرية الرضي) للدكتور عبد المسيح محفوض وبعض الكتب المدرسية ككتاب الانشاء بالمثل للاستاذ كمال بيضاوي ــ لم تتهيأ له الى الآن اسبابه ومؤهلاته بين ادباء هذا الدور وشبابـــه المثقف ، او انه لم يصل الينا منه ما يمثل النماذج العالية التي تشجعنا على اجهاد الفكر في الدرس والموازنة ومن ثم اطلاق الحكم النهائي



القصة في الادب العاملي

ما انفك العامليون الى الامس القريب يعتبرون القصة ملهاة عامية او نوعاً من الادب المنحط لا يليق بالطبقة الارستقراطية في علمها وادبها ان تعنى به عنايتها بالقصائد والمقالات ، ولئن هم مارسوا فن المقامات – وهو مما يمت الى القصص باقرب الاسباب – فذلك لان لغته غير لغة القصص ولان غرضهم منه غير الغرض منها ولانه لا يتنافى مع التقليد للقدماء .

بيد ان تيار النهضة الادبية في هذا العصر دفع بالطامحين من شبابنا وخصوصاً هؤلاء المتحمسين للآداب الاوروبية وهؤلاء الذين تأثروا بهذا الجو القصصي الممتع الذي خلقته جريدة « المكشوف » البيروتية وجريدة « الهاتف » النجفية ومجلة « الرواية » المصرية الى محاولات جريئة موفقة في عالم القصص كان لها وقعها في النفوس وأثرها في توجيه الانظار نحو القصص وفي اقبال المتادبين على قراءته وممارسته حتى تطور تطوراً محسوساً اوشك ان يكون له بينهم مذاهب مختلفة واساليب متفاوتة .

مآخذ القصص العاملي

ولكن مهما بالغنا في شأن هـذا التطور فان القصص العاملي لم يتسنّ له حتى الساعة ان يتحرر من شوائب التقليد والمحاكاة ، ولم يتهيأ لهواته من المرونة والاطلاع والتخصص الثقافي ما يكفي لابرازه فناً كاملا له مشخصاته ومميزاته الفنية بين القصص العربي المعاصر وله اثره ومنزلته المرموقـــة في نفس الجمهور . ولذا ترى اكثر قصصهم لم يسلم مما اخذ به بعض القصص اللبناني ، من ضعف اللون المحلي ، او ضعف العقد ، او الحشو .

فان اللون المحلي الذي يزيد في اطمئنان القارىء ويضاعف تأثره لا تـكاد تشعر به وانت تقرأ بعض هذه القصص العاملية اذ لا ترى اثراً بيناً لهذه الخصائص الشرقية ولهذه التقاليد والآداب العربية التي تلابس حياتنا اليومية وتتصلُ بكل ما نباشره من قول وفعـــل ، وإنما تخال نفسك في اثناء قراءتها انك في بيئة غريبة عمـــا نشأت فيه من اجواء وعادات واعتبارات ، فلا هي غربية خالصة ولا هي شرقية صريحة .

وكذلك العقدة المناسبة المعقولة التي تبرز الفكرة وتزيـــد في التشويق والاثارة وتتأنق في تشخيص ابطال القصة ، فانها الى الآن قلما تتوافر الا للقليل من القصص العاملية .

ثم ان حرص بعض كتابنا على الاستطراد لوصف كل ما يمرون به من حالات ومناظر واشخاص ، كثيراً مـــا جرهم الى فضول

الحديث وحشو الصور النابية عن كل ما يقتضيه سياق القصة من تسلسل الحوار واتساق الوصف وايجاز القول ، وذلك مما يضلل ذهن القارىء ويخمد حميته .

موضوعات القصص العاملي

أما موضوعات قصصهم فأكثر ما نراها منتزعة من صميم حياتهم الشخصية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والفنية ، كما ترى في قصة « ايام » لهاشم محسن الامين ، وقصة « الاعمى » لهاشم حسن الامين ، وقصة « بين الحماة والكنة » لوداد سكاكيني ، وقصة « اديب » لحسين مروه ، وقصة « القلم الوديع » لمحمد شراره ، وقصة « ضباب » لعبد اللطيف شراره ، وقصة « ابي » لصدر الدين شرف الدين . وهذه القصص او المقالات القصصية هي من ابلغ ما قرأته لهم في هذا الباب .

اغراض القصص العاملي

واما اغراضهم وغاياتهم فهي قلما تتعدى تصوير الجمال الفني ترويحاً للنفس من اعباء الشعور المكبوت والاحساس الممض . بيد انهم حين يوفقون في تصوير ذلك ويحكمون فن قصصهم يصلون الى ما قد يرمي اليه غيرهم من الاغراض الاجتماعية والغايات الانسانية لانهم قلما يتأثرون بموضوع قصصي الا لانه شاذ بما له عن المثل العليا او موافق لها . ومتى هم برعوا في تصوير هذا للشاذ بشذوذه او افلحوا

في رسم هذا الموافق للمثل العليا بكل ما له مـن مشخصات مغرية فقد تمكنوا من ابلاغ رسالتهم في تقريب هذا المثل من نفوس القراء او تبعيده .

واما الاسلوب فهو لا يختلف عـن اسلوب الكاتب في مقالاته الا في التزام السهولة والرقة في الفاظـه ومراعاة السلاسة والبساطة في تراكيبه .

الاعتداد بالجيل المقبل

ذلك هو رأيي الخاص في ادب هذه الطبقات الثلاث وهذه هي الصورة الموجزة لخصائص الادب في هذا الدور الاخير ، فاذا لم يفهم منها ان ادباء الشباب قد ادوا رسالتهم ووصلوا الى المرتبة التي يطمحون اليها او الى الغاية التي يتمنونها على غيرهم من الادباء حين يفندون رأيه وينتقدون ادبه ، فعذرهم في ذلك ايضاً ان التطور الاجتماعي والثقافي في بيئاتهم التي شبوا فيها وتأثروا بآدابها وتقاليدها واجوائها ، لم يبلغ بعد مداه ولم يصل من الحرية واليسر والرقي الى الحد الذي يؤهل الناهضين من ابنائه ويساعد الطامحين من شبابه على تحقيق اقصى مطامحهم في العلم والادب والحياة الحرة ، وعساهم بما يبدو من اقبال الناشئة على التعليم العالي — ومن تنافس الزعماء والعلماء والادباء والشباب المثقف في انشاء المدارس الحديثه ، وفتح الغرف المجانية للمطالعة ، وبما يلوح من تعاون الطبقات الشعبية والجمعيات المنظمة على نشر العلم وتعميم الاصلاح في الحواضر والقرى ثم توالي الهجرات العلمية والاقتصادية الى اميركا واوربا والعراق وافريقيا ، وتأثر المهاجرين بما

يتصلون به هناك من بيئات متمدنة ومجتمعات راقية وحياة حرة تشعرهم بقيمة الحرية وتحفزهم للعلم والعمل الصالح والسير قدماً الى الامام ـ عساهم بمثل هذه العوامل والاسباب يبلغون اقصى امانيهم وقصارى غاياتهم من السمو والتقدم على يد الجيل المقبل . فان مثل هذه المساعي الحميدة والجهود الصالحة التي اصبحت موضعاً للتنافس والمسابقة من الزعماء والعلماء والادباء والمهاجرين ، وان تكن ضئيلة فاترة بالنسبة لما يتطلبه هذا العصر وهذه البيئة من عوامل الاصلاح ووسائل النهضة وحرارة المسعى لهي أجلّ من ان تذهب هدراً ولا يجري مفعولها في مثل هذا الجيل الناشىء الذي يتوقد ذكاء ويلتهب غيرة وحماسة لكل جميل صالح ولكل جديد نافع في الحياة .

مصادر التاريخ العاملي (١)

يوشك تاريخنا السياسي قبل عهد ناصيف النصار ان يكون اشد غموضاً وتوغلاً في الاساطير من تاريخ طسم وجديس ، فهو من عهد ناصيف حتى اليوم يكاد ان يخلو من تصوير الاخطاء والعثرات السياسية على وجهها الصحيح ومن ذكر المعارضين ووجهات نظرهم في السياسة التي كانت تتحداهم ويتحدونها في بعض الاحيان ، دع عنك هذا الاقتضاب وهذا التشويش فيما وصلنا من وثائق واخبار وملاحظات .

أترى ان جبل عامل والعامليين ـ قبلاً ـ كانوا تابعين لغيرهم من الحكام والمقاطعات ، ليس له ولا لهم شأن يذكر في سياسة البلاد وأحداثها الجسام ؟؟

أم ان سجلاته التاريخية تلاشت فيما تلاشى من الكتب في عهد

(١) فصل من كتاب (مع التاريخ) انظر ص ٩

الجزار ؟ مع انه لم يفقد شيء من شعر العاملين في مـــدح هؤلاء الزعماء الذين كانوا هدفاً لانتقام الجزار وموضعاً لتنكيله كشعر الشيخ ابراهيم الحاريصي والشيخ ابراهيم يحيى ؟؟

ام من الجائز ان يكون الذين يملكون شيئاً مـــن النصوص التاريخية ما انفكوا خائفين من مغبة نشرها ؟ او حريصين على احتكار ما يختصون بمعرفته منها ؟ او ضنينين بكشف اوراقهم على من يحاول تحرير التاريخ من الاساطير و كتابته بروح علمية ؟؟

او من الجائز ان يكون علماؤنا وأدباؤنا ومؤلفونا قد تهاونوا بهذه الناحية من تاريخ جبلهم مع انك تجد ان ابرع الآثار العلميــة والادبية التي شع منها اسم هذا الجبل في سائر الاقطار انما ازهرت ونمت وتحدرت الينا من هذه القرون السابقة لعهد ناصيف ؟؟

او من المحتمل ان يكون ما كتب من تاريخنـــا السياسي لم يكتب بروح علمية تحرك اهتمام القراء او تدعو الى اطمئنان الباحثين او تستوجب الاحتفاظ بما قد كتب منه ؟؟

ام ترى ان ابطال السياسة الاقطاعية في هذا العهد قد جرى كل منهم على طمس الاخبار التي تمس مفاخره من قريب او بعيـــد او تعزز دعوى اخصامه ومنافسيه او تتصادم مـــع اغراضه واحلامـــه الشخصية في هذه الناحية الحساسة التي تضطرب لهـــا النفوس وتستعر الانانيات وتتمادى الاحقاد في عملها الهدام ؟؟ لا ادري اذ ليس في تاريخنا سؤال او جواب او اشارة تنم عن هذا كله او بعضه ؟

واذا جاز لنا ان نتوسع في الاحتمال اكثر من ذلك فان الشك قد يغلو بنا ويذهب كل مذهب في السؤال عما بقي وعما ضاع من نصوص التاريخ . وفي الاستفهام عن مصدر هذا الباقي او عن حقيقته ومدى صدقه ودلالته .

فلننظر الآن فيما يرجع اليه الباحثون من مصادر عاملية او فيما يعتمدونه من الكتب والاقوال .. وهي تكاد ان تنحصر فيما يلي :

الاقوال الشائعة

١

ان الرأي العام في كل مجتمع – ولو كان الاعم الاغلب من افراده علماء مثقفين – تسيطر عليه روح السذاجة والبله وتشيع فيه الاقوال الكاذبة كما تشيع فيه الاقوال الصادقة وربما كانت الكلمات المموهة والاحاديث الملفقة اشد توغلا في النفوس واكثر انسجاماً مع داعي الهوى من الحقائق المرة ، لما يكون فيها من دقة وغرابة أو طرافة صاغها .. وابدعها خيال الرواة والقصاص على خير ما يتمناه المعجبون والناقمون والطامعون في احلام اليقظة . ولولا هذا لما أثرت محطات الاذاعة وصحف الدعاية وتصريحات الرؤساء أثرها السيء في تضليل الرأي العام الاوروبي أيام الحرب الكونية أو في تضليل الرأي العام العربي في محنة فلسطين ومأساتها الدامية .

فكيف بهذا الرأي العام اذا كان افراده من الغفلة و الغرور

بحيث يروج فيهم مثل هذه الاقوال والروايات التي يرويها الناس الى يومنا هذا .

كقولهم بـأن آل شكر ـ في أيام حكمهم ـ مروا بعين (بوسودون) فانتهرت احدى الغسالات بعض كلاب الصيد فغضبوا لذلك وتركوا كلابهم تأكل طفلها وتمزقه امام عينيها ! »

. . .

وقولهم : ان بعض مقدمي جزين ركب فرساً جموحاً وأطلق له العنان في قرية جرجوع فانطلق به الفرس بين اشجار التين حتى خيف على المقدم من جراء ذلك فما كان منه الا ان قبض على فرع من الشجرة فلم يستطع الفرس بعد ان يتحرك بينما كان في منتهى السرعة والنشاط ولم ينزل عنه المقدم حتى مات تحته من شدة الضغط ! ولم يكن الفرس له فاعتز لصاحبه بأنه فرس هجين لا ينبغي ان يقتنى ! »

. . .

وقولهم عن كامل بك الاسعد يوم عاد من اسطنبول ومعه عربة ممتازة « ان بنت الخليفة العثماني السلطان محمد رشاد قد أهدت له هذه العربة مع خيلها قالوا ذلك وصدقوه ، على استحالة ان يتصل مثله بمثلها يومئذٍ لما كان يفصل بينهما من تقاليد الخلافة وعنجهية الملك والسلطان ، واختلاف السن والجنس وتباين الطبع والنشأة والمحيط ؟؟ »

. . .

وقولهم : (بان جيش العامليين في عهد ناصيف وظاهر العمر كان يبلغ زهاء العشرة آلف فارس من الابطال المجربين !)

مع ان فرسانهم في وقعة البحره والحولة لم تزد على ٣٠٠ فارس كما نص على ذلك الشيخ حيدر رضا الركيني في مذكراته وكذلك لم تزد فرسانهم في وقعة كفر رمان على ٥٠٠ فارس على رواية الامير حيدر وغيره من المعاصرين .. وهبها بلغت الالف والالفين فأين هذا من العشرة آلاف ؟ وهاتان الوقعتان من أكبر وأشهر وقائع العامليين في عهد ناصيف وظاهر العمر .

ثم انك لو احصيت الخيل في الوقائع الكبرى التي خاضها كل من الامير فخر الدين المعني والامير بشير الشهابي في عنفوان عظمتها وقوتها لرأيتها لم تبلغ عشرة الاف فارس بما فيهم فرسان العامليين ؟!

وعلى فرض ان يكون فرسان العامليين عشرة آلاف فكم ينبغي أن يكون عدد المجموع من حملة السلاح ممن لا يستطيعون ان يقوموا بنفقات الخيل ولوازمها وهم لا يكونون عادة — في كل عصر ومصر — دون التسعين بالمائة ?? (١)

. . .

ثم بعد كيف بهذه الشائعات والاقوال اذا أصبحت مورداً

---

١ - راجع ص ١٧١ من مجلة الكلية البيروتية م ١٠ عدد شباط سنة ١٩٢٤

للتنافس الذاتي ومصدراً للاماني الجامحة ومظهراً للتعصب الحزبي كهذه الاقوال والشائعات المتناقضة التي يتراشق بها اليوم كل من زعماء الحزبين المتعارضين في الجنوب فيدعيها فريق وينكرها فريق ويتأولها آخر ؟

أم كيف بهذه الاقوال اذا عصف بها تراوح النفوذ بين زعيم وزعيم وتطور الصداقة بين يوم ويوم كهذه الاقوال والنسب المختلفة بين مـا كان يقصه ويقوله اعضاء القوائم الانتخابية سنة ١٩٤٧ بعضهم عن البعض وما اصبحوا يقصونه ويقولونه اليوم وقد تبدلت الاحوال واصبح الاخصام اصدقاء والاصدقاء اخصاماً الداء يستبيحون كل شيء يرضي نقمتهم حتى انكار ما كانوا يتحدثون به في المجالس العامة وما كانوا يقولونه ازاء مكبرات الصوت ومـا ملأوا به صحف ذلك العهد من صور الاحتفالات ونصوص الخطب والتصريحات المغالية .

فهل تظن ان السياسة كانت في الماضي اروع وارصن منها في هذه الايام ؟؟ وهل تتصور ان ساسة الامس وزعماءه كانوا ابعد نظراً واصح منطقاً من ساسة اليوم وزعمائه ؟؟ أم هل تعتقد ان افراد الرأي العام كانوا سابقاً اوفر علماً واكثر فهما واصدق لهجة منهم في هذا العصر ؟؟ ليكون لهم ولهذه الشائعات التي تداولتها اغراض السياسة الحزبية وعصف بها تراوح النفوذ وتطور الصداقة واضطراب المتقاعدين من رواتنا بين عسف الذاكرة وتمادي الخيال ليكون لهم ولها هذا المنطق العلمي في وضع تاريخنا وتحرير قضاياه

على ما تقره اصول البحث ، اذا نحن أخذنا هذه الاخبار الشائعة على علاتها ولم نوسعها شكا وبحثاً وتمحيصاً ؟؟

وثيقة الركيني

٢

لعل هذه الوثيقة أو المذكرة تمتاز عن غيرها من مصادر التاريخ العاملي بشيئين هامين ، أولهما سذاجة واضعها .. سذاجة تباعد بينه وبين افتعال الحوادث او تلوين الحقائق والاحتيال في توجيهها وترتيبها على اشكال توصله الى النتيجة التي يصل اليها الحاذقون المتطرفون في اغراضهم ومآربهم الشخصية وثانياً معاصرته لاكثر الحوادث وللابسيها ومدبريها .

فهي لذلك أقرب الى الصحة وحسن الظن وصدق الدلالة من هذه المصادر المجهولة النسب ، ومن هذه الوثائق التي جاءت متأخرة عن زمن الحوادث ولم تسلم من المبالغة والتأويل والاذعان لحكم الظروف المحرجة والعواطف الجامحة .

فما يرد في هذه الوثيقة موافقاً لما ورد في غيرها نستطيع ان نعتبره مؤكداً له او موضحاً لمجمله ، وما يرد مخالفاً له او مصوراً لاشياء وخصائص تؤدي الى نتائج غير النتائج التي ادت اليها بقية المصادر المعروفة نستطيع ان نتخذه حجة على ضعف الدلالة وخطأ الاستنتاج من فحوى النصوص المغايرة ، او نعده برهانا على ان هناك

روايات وملاحظات لم تزل في طي الكتمان لم تصل اليها يد المؤرخين او لم يجرأوا على اظهارها او اعتبارها ، اما لأنهم لم يؤمنوا بها كل الايمان او لان ظروفهم واجواءهم وتقاليدهم لا تتسع للحرية والصراحة الا بقدر معلوم يرضي ارتياح الناس لروعة الماضي وعصمة الآباء والاجداد عن خطل الرأي واتباع الهوى .

ولكن موطن الضعف ومحل الشك في وثيقة الركيني هذه هو في أن عبارتها لا تشعرك بأن المؤلف قد لابس الحوادث او شاهدها عن كثب او استقى اخبارها من الموارد الأصيلة الصافية او تابع مجراها واستقصي اجزاءها وفصولها ، وانما تشعرك بانه سجل ما وصله من الاخبار عن اي طريق اتفق ولو انها كانت مشبوهة ، وهناك موضع الخطر في السذاجة وحسن الظن وسرعة التصديق ، اضف الى هذا ان نصوصه في اغلب الاحيان تأتي قاصرة او مبتورة متقطعة لا تفهم منها ما يجب ان يفهم من منشأ الحوادث او تسلسل صورها وفصولها ونتائجها ، وكم تراه يجمل في اشياء ويسكت عن اشياء هي اجدر بالتوضيح والتعليل وبالحكم القاطع من هذا الاستطراد الى ما يشبه السخف احيانا كأنما هو قد كتب هذه المذكرات لنفسه او لابناء جيله من الذين يكتفون منها بالاشارة لعلمهم بالأسباب والظروف وتفاصيل الحوادث ونتائجها .

فاذا جاز للباحث ان يطمئن الى سذاجة المؤلف وصدق لهجته وبساطة تعبيره فلا يجوز ان يطمئن الى صحة فهمه للحوادث بعللها وظروفها وتفاصيلها ولا الى صدق معرفته لهوية المتحدثين اليه

ومقدار علمهم بالحوادث ومدى احتياطهم لحقيقة ما يروونه ويقصونه ولا يصح ان نعتقد بأن ما اهمله اودق عن فهمه وتعبيره من الحوادث والحالات والملاحظات كأن لم يكن له حقيقة ولا وجود .

إذن فأهمية هذه الوثيقة تدور مدار الدقة في وزن نصوصها وتفحص اخبارها واستلهام اسرارها ومزاياها والاحتياط لما فيها وفي غيرها من تفاوت الدلالة وتعارض السياق . وهذا امر شاق عسير بالنسبة لمن تتحكم به الأغراض والاهواء وتحول بينه وبين الاخلاص لما توحيه الادلة والقرائن من نتائج طريفة واحكام مغايرة لما تنضح به الشائعات والاخبار المرسلة .

الجوهر المجرد في شرح قصيدة علي بك الاسعد

٣

لا شك بأن الذين ادركوا عصر الاديب الفاضل الشيخ علي السبيتي او اتصلوا به من علمائنا وادبائنا قد اطلعوا على كتابه — الجوهر المجرد — او على قسم منه او سمعوا الكثير من اخباره ونصوصه وتناقلوها جيلا عن جيل — على اختلاف في الوعي والذاكرة والامانة في النقل — حتى وصلت الى كتاب عصرنا وادبائه الذين حاولوا ان يسجلوا تاريخ بلادهم على ضوء العقل والواقع .

فكتاب السيتي إذن من الكتب التي تستوجب العناية ، والبحث عنها كمصدر للمؤرخين له اثره في تبرير احكامهم وتقويم أبحاثهم واذا لم يتهيأ لنا الوقوف على أصل الكتاب ولم نستطع ان نعرفه معرفة صحيحة تامة فحسبنا — لتقويمه كمصدر علمي — ان نعرف منه قصد المؤلف وغايته من وضع الكتاب ثم الجو الذي سيطر عليه أثناء التأليف وهل كان تأليفه لغاية علمية صرف ؟ أم لضرورة سياسية وحاجة في نفس يعقوب ؟؟ وهل كانت ظروفه اثناء العمل حرة مساعدة على الصراحة في القول والاخلاص في العمل والتجرد لرسم الحقائق بجميع فروعها وعللها والوانهـــا ؟؟ أم ان الظروف والاعتبارات قد احرجته وارهقت قلمه وخياله بمحاولات ومجاملات لا قبل للعلم والتاريخ الصريح بها ؟

وليست معرفة هذا الجو وهذه الغاية من الصعوبة بحيث يتصور البعض فانه اذا لاحظنا هذه الاثار الادبية التي تصدى العلماء والادباء لشرحها وتفسيرها ، وادركنا انهم انما تصدوا لشرح ما أغلقت معانيه وكثرت الغرابة والوحشية في الفاظه كالمعلقات السبع ،والعلويات السبع او لما اشتمل — مع ذلك — على حكم غالية وامثال مجهولة المورد هي بحاجة الى التوضيح والتقرير كلامية العرب ، ومقصورة ابن دريد ، او لما تضمن الاشارة الى كثير من الحوادث الهامة وانطوى على مبلغ من الاحكام والنظريات كرسالة ابن زيدون لولادة بنت المستكفي أو لما دق معناه وسما فنه حتى صار بحاجة الى من يكشف للقارىء العادي عن أسرار البلاغة فيه ويجعل منه انموذجاً للفن الرفيـــع كما ترى في تفسير آي القرآن او ما قاربها فصاحة وبلاغـــة من خطب

النهج ومختارات الشعر والنثر . فانه اذا لاحظنا ذلـــك كله ثم رجعنا الى هذه القصيدة التي تصدى لها هذا الاديب الكبير بالشرح والتفسير ، ولاحظنا انها لا تعدو ان تكون عادية بصيغها والفاظها ومعانيها ليس فيها من هذه الخصائص والامتيازات مـــا يستوجب شرحاً او يدعو الى تفسير وتعليق ، فلا الفاظها وحشية ولا معانيها مغلقة ولا فيها من الامثـــال والحكم ولا من شبح الحوادث التاريخية وصورها الهامة ما يعز على القـــاريء فهمه وتصوره ولا هي من دقة البلاغة وتناهي الخيال وتوغل الفكر بحيث نعجز عن ادراك اسرارها وتذوق فنها وجمالها الا بتوجيه عالم وتأويل خبير او افتراض شاعر ألم بهذا المختار من ابياتها

خليلي ما هذا الجفا والتقـــاطع ... وماذا التنـــائي والدموع هوامع
رعيت سوام اللحظ في زهرة الدجى ... فما بان لي للنيرين مطالـــع
ولم ارى غير الفرقدين وأختهـــا ... العميصا تعاطيها الرضى فتمانـــع
سلو مهجتي الحرى ودمع تذيبه ... بعين واخرى للديار تطـــالع
فانسانهـــا يرنو الى ربواتـــكم ... كأن له في الرقمتين ودائـــع
اقلب فكري بالتداني فلم اجـــد ... سبيلا وداعي البين بالبعد صادع
كوى الدهر احشائي من الهجر وانثنى ... علي بسهم اوترتـــه النوازع
متى نلتقي يوماً بتبنين عامـــل ... وتبصر هاتيك الليالي ورواجع
أأنسى لييلات اديرت كؤوسها ... علينا واقداح السرور فواقع

نعمت صباح ربع تبنين واغتدت ... بك العين والآرام وهي روائع
يقولون عذالي اما آن ان يرى ... فؤادك من بين الاخلاء هاجع
تذكرت هل يجدي العواذل عذلهم ... وهل يصنع المحبوب ما انا صانع
الى الله كم عهد رعيت وذمة ... حفظت وود اخبئته الاضالع
وكم ليلة احييتها وجفونكم ... غريقة نوم أهنئتها المضاجع
خليلي اني كلما ذر شارق ... شرقت بماء اسبلته المدامع

. . .

فما انا عن عهد الاقارب معرض ... ولا انا عن وصل الاخلاء راجع
سموت بآباء كرام شعارهم ... بناء المعالي حيث كيوان ساطع
لهم شرف يسموا على هامة السهى ... ومجدهم فوق المجرة طالع
هم القوم من عليا نزار وطفلهم ... تمائمه البيض الرقاق القواطع
هم مهدوا من عامل كل صعبة ... وهم شيدوها والرماح شوارع
وهم ورثوها بالصوارم والقنا ... وفي همم تندك منها القوارع
وهم لذوي الآمال كعبة آمل ... وعند لقا الاعدا رياح زعازع
وهم في الوغى آساد كل كريهة ... وفي السلم بالجدوى غيوث هوامع
واياهم من عهد عاد شهيرة ... وفي كل عصرهم بدور طوالع
مناقب لا تحصى لهم ومآثر ... شذا عرفها في الهند والصين ضايع
رعوا ذمم العليا بالهمم التي ... اليها جميع العالمين خواضع
وكم شامخ العرنين اضحى مذللا ... لدينا وكاس الذل والحتف جارع
نروي القنا في يوم معترك اللقا ... وبتارنا في هامة الضد راكع
وان طلب المعروف والفضل طالب ... اشارت الينا بالاكف الاصابع

ورب امرء اودى الغرور بنفسه   فسيق لما قد ساءنا وهو جازع
وجر عنان الغي منه تبختبرا   ورام التي منها تطير القنازع
فكان عثورا قد كبا بغيه به   وضاق به رحب الفضا وهو واسع
ألم تعلم الاقوام اني فتى الوغى   وبدر اذا ما اظلم الخطب طالع
واني من القوم الكرام ذوي العلى   ليوث قراع ما لهم من يقارع
وان دافعتهم من زمان صروفه   يعاضدهم عون من الله دافع
وفي جبهـــة الايام خطت مآثر   لنا سطرتها في الدهور الوقائع
وان نحن فاخرنا بآثار مجدنـــا   فليس لنا عند الفخار منـــازع

ومهما قيل في وصف هذه القصيدة فهي لا تدل على معنى يصح الاطمئنان اليه سوى ان الناظم ــ وهو بحكم الجاه والمال والنسب وهتاف المحدقين بملاعب صباه من اولئك الواثقين بانفسهم والمعجبين بماضي آبائهم واجدادهم ــ رأى قصيدة الفرزدق العينية فأعجبته وتأثر بها او بهذا البيت من ابياتها .

اولئك آبائي فجئني بمثلهم   اذا جمعتنا يا جرير المجامع

فأوحى له هذا الاعجاب المثلث ان يعارضها او ان يقلدها وينظم على الوزن والقافية قصيدة يفتخر بها هذا الفخر الاجمالي الساذج الذي اعتاد المتأخرون من شعرائنا ان يقلدوا بــه المتقدمين مـــن شعراء الجاهلية كالسموأل وابن كلثوم وعنترة ، او مـــن شعراء الاسلام كالفرزدق وابي فراس ، والرضي ، تقليداً لمحض التقليد لا يقصدون به الى حقيقة مدركة ولا الى واقع مرموق .

فإنا اذا امعنا في هذه الملاحظات وتدبرنا نتائجها نستطيع ان نعرف ان المؤلف — وان غالى في مقدمة الكتاب بما يشعرك ان القصيدة تمتاز بجميع هـذه الخصائص التي تستوجب الشرح (١) — لم يؤلف كتابه لغاية علمية او ادبية صرف مهما يكن مـــن توسعه في استعراض الحوادث والحالات والسير ، وانما الفه لغاية اخرى وفي جو خاص وضمن دائرة معينة لا يستطيع الخروج عنها الى ما يسخط حاكم المقاطعة ، وزعيمها المطلق ، وشاعرها الحماسي . بما لا يتناسب مع فحوى الحماسة من وقائع وسير وملاحظات قد تكون جديرة بان لا تسقط من حساب المؤرخين الاحرار ، ولا يسعه كذلك التهاون ضمن هذه الدائرة بما يرضي الميول والطباع والتقاليد الاقطاعية مـن احاديث المهرجين وزخارف المداهنين ومبالغات المتزلفين ، ولو انـه اعتقد — في صميم نفسه — بان معظمها من تلوين الخيال الجامح .

ويكفي للدلالة على صحة هذه الاحتمالات ان تقرأ مـــا نشر ص (٧٩٦ من العرفان م ١٠) للعلامة الشيخ محمد علي عز الدين وهو من المعاصرين للحوادث الذين اجمعت الكلمة على نزاهة رأيهم وصدق معرفتهم :

ثم تقابله بما رواه شبيب باشا الاسعد ص ٣٩ و ٤٠ من ديوانه عن كتاب (الجوهر المجرد) هذا (٢)

---

(١) اطلب ديوان شبيب باشا ص ٧٠ :

(٢) راجع مع التاريخ العاملي ص ٢٠ — ٢٥ :

وحسب الباحثين اليوم ان يلاحظوا هذا الفرق بين النصين ليدركوا مدى تقيد المؤلف بواجبات المؤرخين الاحرار ومدى تهاونه بها، ثم ليعرفوا واجبهم من القصد والاحتياط والحذر في الاخذ منه والاعتماد على ما ينسب له من اقوال واحتمالات تتراوح بها الظنون والاوهام والعقائد :

مقدمة ديوان شبيب باشا الاسعد

مهما تختلف الآراء والاقوال بشأن هذه المقدمة ومحلها من الآثار العلمية والادبية التي يتداولها القراء والباحثون . فهي لا تعدو ان تكون .. كما يقول المؤلف « ص ١٥ من الديوان » نبذة تاريخية تحتوي ما امكن جمعه من تاريخ نسب بيته مع ترجمة بعض اسلافه اي ترجمة الفرع الذي اختص به المؤلف من ابيه وعمه :

وان من يحيط علماً بهذه الظروف التي احاطت بالكاتب ويتصور الجو الذي كان يسيطر على افكاره اثناء كتابته لهذه النبذة وتأليفه لهذه المقدمة ثم يقرؤها بتروٍّ وامعان ، ... يدرك اي اثر للعاطفة والخيال فيما كتبه وفيما قدمه للناس من تاريخ :

فان المؤلف – كما يعلم جل معاصريه – انما كتب ما كتبه في عنفوان خصومته مع كامل بك الاسعد وفي الوقت الذي تكتلت فيه اسرته آل الصغير ، مع اكثر الاسر العاملية حول خصمه ومعارض سياسته كامل بك

فهو — بما يترجمه من حياة عمه وابيه وبما يصوره من تاريخ آبائه واجداده — كمن يحاول ان يفند سلوك القوم معه ، وعقوق العشيرة له ، وتخاذل الطائفة عن نصرته وتأييده ، او كمن يحاول ان يبين مبلغ الاثم والخطأ في تألبهم عليه وتجاهلهم لمكان بيته ونسبه ، ومدى علمه وأدبه وما امتاز به من خصائص لم تتهيأ لغيره من منافسيه على الرياسة وجاحدي فضله ومعروفه جهلاً ومكابرة وحسداً .

ولكي تتأكد من صحة هذه المزاعم التي ازعمها فاقرأ ما يقوله صفحة ٢٩٢

لخالق اوجد الاشياء من عدم ... اشكو خيانتكم لي يا ذوي رحمي
اخفيتم الغدر منكم في صدوركم ... فكان اشهر من نار على علم
فكم وفيت وبي خنتم وكنت لكم ... امين عهد بغير الحفظ لم يهم
وكم رجوت صلاحاً من سرائركم ... فكنت كالمرتجي نوراً من الظلم
إذ قد تعودتم الغدر القبيح بلا ... داع وما الغدر من شأني ومن شيمي
كأنكم حسداً منكم على حنق ... مني طوالب ثار غابر ودم
وما علي اذا لم اكترث بكم ... وعن عليٍّ ورثت الحلم من قدم
لولا شقائي بتشييدي لمجدكم ... لما ارقت بليل فيه لم أنم
فكم لقيت بكم من شدة ولكم ... ألم من أجلكم بالقلب من ألم
وكم بعثت سهاداً من تخبطكم ... كخبط عشواء لي في أليل بهم

ثم انظر صفحة ٣٢٦ الى هذا الاسلوب (العشائري) من قوله في الافتخار بنفسه وبمآثر ابيه وفي التخلص من ذلك الى التعريض بمن

يتحدى جاهه ومنزلته .. تعريضاً يصور مدى الخصومة العنيفة ومدى الملاحاة الشديدة فيما بينهما :

قد جرتم بعذابي عند صولتكم (١) كأنكم ما علمتم انني ابن جلا
وانني الاسد الضرغام والرجل الذ ي اذا عد كان الاصيد البطلا
وانني ابن اب كانت مآثره فوق الثريا وعنها قط ما نزلا
وانني ابن اب كانت مناقبه تعدادها لو يعد الرمل ما اكتملا
وانني ابن اب نال العلى ورقى على الاثير بآثار له وعلا
وانني ابن اب في الدهر كان له أيد طوال بها كم ابرئت عللا
وانني ابن اب نجم الفخار به عند الكرام ليوم الحشر ما افلا
ابو السعود الذي كم عاد قاصده على السعادة من جدواه مشتملا
فسؤدد المرء والمجد الأثيل كذا وهكذا فليكن او لا يكون فلا
انا ابنه المقتفي نهجاً عليه مضى وغير اوصافه الغراء ما انتحلا
فيا له مفخراً ان عد في ملاء لم تلق فيه اخا شك به جهلا
فقل لمن رام يعزو : لي معائبه لا برد الله من احشائك الغللا
فمت بغيظك كم من حاسد حنق اعاب قبلك شهماً معرقاً وقلى
وهل يلام بعيب الشمس ذو رمد وطيب الورد يؤذي عرفه الجعلا

اما تحديه لكامل بك او تفنيده لمزاعمه ومقاصده فلا يمكن ان نحصيها بقصيدة او قصيدتين من شعره ، ولكنا نستطيع ان نزعم

---

(١) الخطاب لاحد اصدقائه

ان جل نقده له يرتكز على ما تراه ــ صفحة ٢٩٨ في القصيدة الميمية : وصفحة ٢١٥ في القصيدة الرائية ــ من معان واوصاف ومرام كان لها اثرها في الهدم والبناء السياسي يومئذ فانظر الى قوله في الميمية :

عجبت ولست اعجب من ... على خبث السريرة مستقيم
حكى الدجال بالتزويق منه لخلق الواحد الأحد العليم
تراه يبث كالخناس شراً وكم في الناس من عقل سقيم
فويل ثم ويل ثم ويل بيوم غد لأفاك اثيم
ولما خال من ذا الدهر ميلا لمرعى منبت الاصل الوخيم
تودا في رداء قد تبدت علائمه على الوجه ...
وصير نفسه علماً واضحي بها لاولي المساوىء كالزعيم
وفي ضرر العباد له ولوع فيشتم الفساد من النسيم
يرى ذكر الاذى لذوي المعالي كنغمة عود اسحاق النديم
يخيل للعقول تخيلات يخال بها كابليس الرجيم
اذا مر النهار بغير قال وقيل بات في ليل السليم
يطالب ـ للمفاسد ـ في حقوق بالحاح مطالبة الغريم
ويزعم انه في المجد امسى كحاجب او زرارة في تميم
يكلف نفسه ما ليس فيها ويحملها على الخطب الجسيم
ويظهر ان كل الميل فيه لأهل المجد والخير العميم
وهل ترجى المكارم في صفات واخلاق من ....
وذا ما لا يكون : ومثل هذا طلوع الشمس في الليل البهيم

. . .

يخاصمني بـلا سبب وداع ولست له بضـد او خصيم
ولكن حيث طينتـه فساد فليس عـلى خصامي بالمليم
تمسك أن يمسك واستعذ من اذاه بسم رحمن رحـيم

ثم ابحث بعد عما شاكل هـذه الاقوال والآثار ، مـن حياة المؤلف نفسه ومن تصريحاته السياسية وبقية منشوراته الادبية ، فانك حين تبحث ذلك وتتصور حقيقته وتقرأ مـا اورده في المقدمة عـلى ضوء هذه الحقيقة والواقع المعلوم .. لا تستطيع ـ مهما جهدت او بالغت في تأويل المقاصد وتوجيه الروايات ـ ان تساير المؤلف في كل ما ذهب اليه من اقوال وآراء طغت عـلى معظمها العواطف الفردية والقبلية او ما شئت ان تعتبره من هذه العوامل التي اثرت على منطقه وتفكيره واذهلته عما يتخلل بيانه من مآخذ جمة .

فانظر الى ما يقوله العلامة الشيخ محمد علي عز الدين ص ٦٦ و١٥٣ من كتابة سوق المعادن عن اختلاف علي بك الاسعد مع تامر بك الحسين وعن اعتقال الاول مع ابن عمه محمد بك ووفاتها بدمشق ... ثم قس عليه ما قاله الباشا في ذلك بين صفحة ١١٠ وصفحة ١١٥ من ديوانه (١) .. ثم حدث بعدُ عما يمكن ان تطمئن اليه انت من هذه الأقوال والروايات التي حلت من هذه النبذة محل القاعدة من التمثال لنطمئن ـ نحن ـ اليها ونأخذ عنهـا بدون تحفظ وبدون

---

(١) اطلب (مع التاريخ العاملي) ص ٢٩ – ٣١ ؛

احتياط لأثر العاطفة والخيال في صياغتها وتأليفها وتداولها بين الرواة ؟؟

بقية المصادر

أما غير هؤلاء من المؤرخين والرواة العاملين الذين اطمأن اليهم صاحب (جبل عامل في التاريخ) فاحسب ان الكلام في جل ما رووه لا يختلف عن الكلام في هذه الشائعات من الاقوال والقصص التي عبثت بها الايام حتى جعلتها مادة للهو والتندر اذ لا اراهم تحدثوا بما تحدثوا به الا وهم يرسفون في اغلال التقاليد والعادات ويستوحون اعنف المؤثرات الحزبية او القبلية او الطائفية في تصوير ما صوروه من الحوادث والوقائع حتى التبست الحقيقة بالخيال ولم يبق للباحثين من التاريخ سوى رموز واشارات لا تشعرك باي احترام للواجب العلمي ولا باي احتياط للحقيقة والواقع وانما تشعر بان هناك كلفاً بالاغراب او طمعاً بالحظوة او تهربا من المسؤولية او مسايرة للاجواء والظروف التي حسنت لهم ما حسنته من تلاعب بالالفاظ وتسامح في الحديث وإسراف في التلوين والمغالاة :

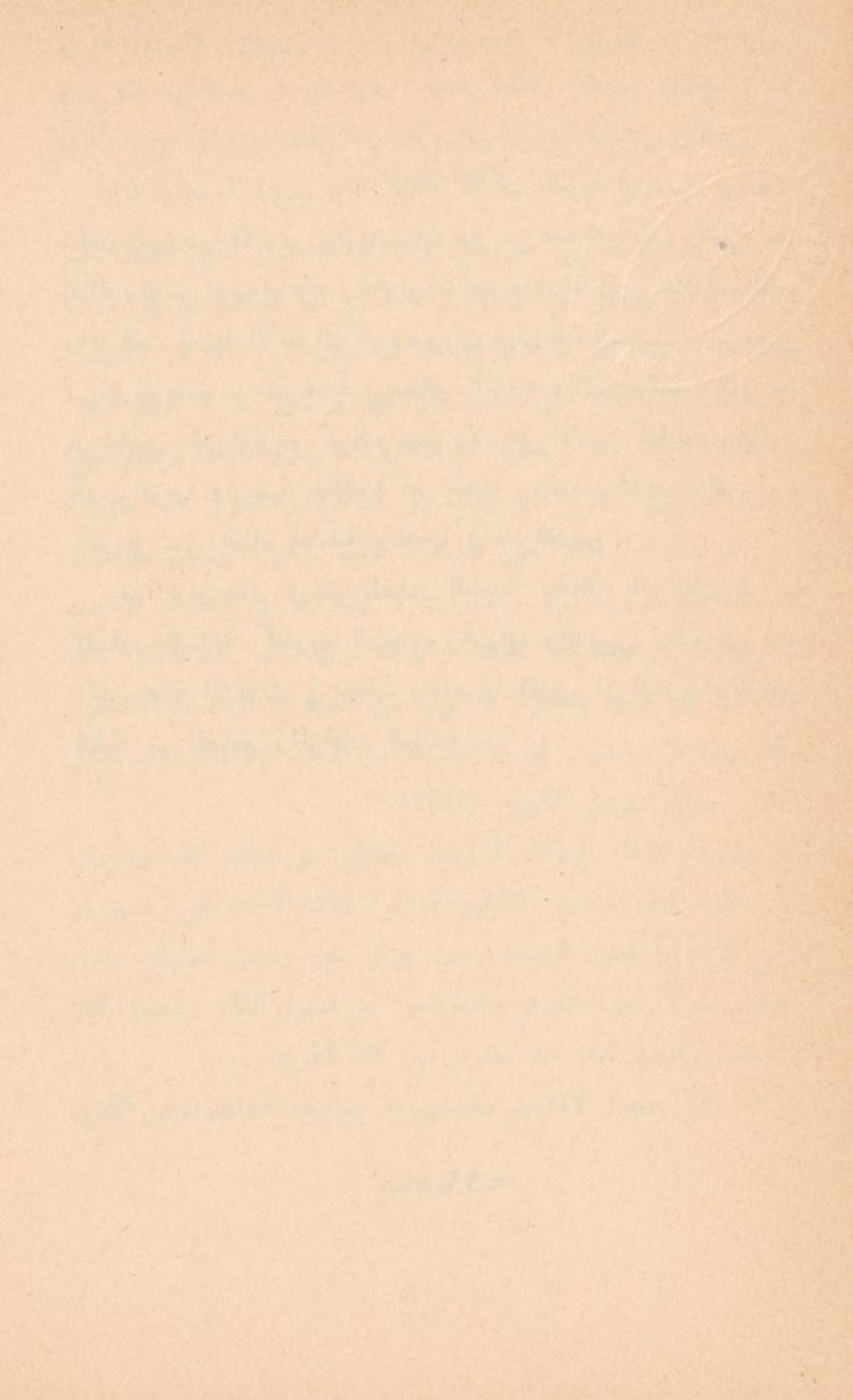
ولو أن هؤلاء الرواة والمؤرخين حافظوا على عناصر القصة والرواية فيما حكوه وصوروه في كتابتهم ثم سموا ذلك بالاسماء التي ترضيهم او ترضي القراء كما فعلت السيدة زينب فواز حين وضعت قصتها – حسن العواقب – لأراحوا ضميرهم واستراحوا من فضول النقاد وأنصفوا العلم والادب بوقوفهم عند حد معلوم من كلا الطرفين ..

اما ان يبيحوا لاقلامهم والسنتهم ما يستبيحه القصاصون من التمادي

في الخيال والافتراض ومن الاغراق في صوغ التاريخ على ما يرضيهم او يرضي فئة من الناس ثم يتنكروا جهدهم لمظاهر القصص وواجباته ... فذلك شيء لا يقره منطق العلم ولا منطق التاريخ السياسي والادبي .

فان المرحومة زينب فواز عندما اذكت الغربة في نفسها عواطف الحنين الى وطنها الاصغر وأرادت ان تعبر عن هذه العواطف وتتغنى بمجد ابنائه ومحاسن ارضه وسمائه لم تحاول ان تصوغ تاريخاً يرضي هذه العواطف وانما الفت قصتها الآنفة الذكر وصورت فيها الحياة السياسية ــ فيما مضى من تاريخ عاملة ــ مقترنة بأنبل مظاهر المروءة والشمم والنخوة العربية ، فلم تجازف بحق التاريخ كواقع وعلم ولا بحق الادب كعاطفة وخيال ، فأدت لقومها ولوطنها بذلك اكبر خدمة . وقدمت للادب والفن ابرع آية على سبق الفتاة العاملية وتقدمها في عالم القصص .

هذا وما يقال في نقد المصادر العاملية يمكن ان يقال في بقية المصادر اللبنانية كتاريخ الصفدي والشهابي والدويهي والتنوخي وان تكن هذه المؤلفات في ابحاثها وتفاصيلها اقرب الى التاريخ والابحاث العلمية من المصادر والمؤلفات العاملية :



ملاحظات في الادب العاملي

رسالة الشاعر

أجل ما هي رسالة الشاعر ؟ وهل يهمه — على اختلاف ظروفه وتنوع ميوله — سوى ان يعبر عـن خواطره وأفكاره وشعوره بالطبيعة وبالحياة بكلام موزون مقفى له اثره البالغ في الهيمنة على عواطف السامع ووجدانه وله قوته ولباقته في استدراج القارىء الى القول بما يذهب اليه من خير او شر ، وحق او باطل ، وجد او هزل وذلك كل ما ينبغي ان يراد من قولهم : الشاعر رسول الجمال : اذ ليس المراد من الجمال جمال الطبيعة وجمال الواقع فأن هـذا النوع من الجمال لا يحتاج الى بيان او الى تعبير . وهو في تعبيره عن نفسه افصح من اي شاعر حساس يستلهم منه وينقل عنـه : وانما المراد من الجمال الجمال الفني ، وهو ان يبرز الشاعر عواطفه وافكاره بصورة شعرية جميلة ويعبر عنها باسلوب بديع مؤثر ، وليس

عليه مع ذلك ان يلتزم بفكرة خاصة او مذهب معين من مذاهب الفلسفة والاجتماع او غيرها من مذاهب الحياة التي يتوخاها النقاد غالباً في قولهم: هل ادى الشاعر رسالتــــه الى عصره؟ وخاصة اذا لاحظنا ان الشعر لغة الخيــــال، وان للخيال ان يصور الاشياء كما يشاء لا كما تشاء الحقيقة والواقع، او قلنا بنظرية — الفن للفن — ولم نقف بالشعر حيث يقف القادة المصلحون ونحصر الشعور في دائرة ضيقة لا تسمح للخيال المجنح ان يبسط جناحيه على الحياة بما فيها من ألوان وصور، وتغاير وتناسب.

المقاييس الفنية

ثم اذا كانت هذه هي رسالة الشاعر كما يفترضها الحدس ويقرها الذوق الفني ، فما هو الفارق اذاً بين الشاعر الذي وفاها حقها وأدّاها خالصة للفن والحياة ، وبين من خانه التوفيق وقعد به العجز عن القيام بواجبها واحكام اصولها وفروعها أيكون الشعر من حيث هو كلام موزون مقفى ؟ ام الشعر كما تفرضه موازين الحياة الفنية

ولكنني احسب ان الذوق الفني إن عاماً وإن خاصاً لا يستسيغ الشعر ولا يعتبره الا بذلك المعنى الذي تفرضه هذه الموازين

١ـ الاستقلال بالفكر والخيال والاسلوب والبعد بها عن مظان الاقتباس والتقليد

وذلك بان يتوجه الشاعر الى نفسه والى موضوعه والى بيئتـــه الخاصة والعامة ، والى الحياة ماضيهـا وحاضرها ، في انتزاع صوره

الشعرية ، واشتقاق تشابيهه واستعاراته وامثلته الشارحة المفسرة لا بان يحاكي او يقلد غيره من القدماء او المحدثين

٢ ـ وحدة الموضوع

وذلك بان يكون الموضوع والفكرة التي يحوم حولها خيال القصيدة واحداً مهما تنوعت معاني الشاعر واغراضه

٣ ـ الدقة في تصور الموضوع وتخيله

وذلك بان يحيط به من جميع اطرافه ونواحيه ويجلوه على القراء بخيال ضافٍ بديع تنعكس به جميع خواصه واسراره ومشخصاته وتتمثل به ظروف الشاعر وشخصيته واضحة جلية

٤ ـ بلاغة التعبير عن تلك الصورة

وذلك بان يكون الكلام على شكل لا يتسنى فيه لاي فنان مهما سما ذوقه الفني ان يقدم او يؤخر او يغير او يبدل ، او يزيد او ينقص شيئاً منه مع الاحتفاظ بالروعة الفنية والوضوح والانسجام اي : بروعة الكلام ووضوحه وانسجامه ، وبما يقتضيه الموضوع ، والغرض والمقام من خصائص بيانية :

٥ ـ انسجام السياق

وذلك بان يكون كل بيت او كل لفظ على ما يقتضيه اللفظ

السابق ويناسبه نغما ومعنى حتى تكون القصيدة كلها كأنها جملة واحدة تعبر عما يمتاز به الشاعر من روح فنية وسمو فكري

٦ـ الصدق (١)

وذلك بان ينقل الشاعر عاطفته بنوعها ودرجتها الى ذهن القارىء ـ بما يحكمه من تصوير منبع تلك العاطفة وتشخيص ملابساتها ـ ليرى القارىء في الشعر ما قد رأى الشاعر نفسه اذ لو ترك هذا التصوير الذي يثير العاطفة ويبعثها : ثم اكتفى بذكر آلام نفسه وافراحها . فربما لا يصدقه القارىء ولا يتأثر لآثاره لانه لا يرى داعيها والحامل عليها وانما يسمع دعاوي بلا دليل يبررها .

---

(١) شرح الصدق مأخوذ بتصرف عن مقال للاستاذ احمد الشايب

اختلاف الغرض من النظم

ثم اذا صح لنا ان نقف عند هذه الغاية من ــ رسالة الشاعر ــ او حق لنا ان نجتزىء بهذه الخلاصة من « المقاييس الادبية » التي نتبين فيها محل الشعر والشاعر من تلكم (الرسالة) . فهل يسمح لنا من يقرنا على هذا القول من شعراء الشباب العاملي بان نحاسبه ــ بما يقدمه لنا من آثاره الفنية ــ على نسبة اعتداده بادبه وفنه او على نسبة ما يطمح اليه من سمو الفن وتقدير المجتمع ، علنا نتوفق لرفع الغبن ووضع الحق في نصابه ؟ ونريحه او نريح الناس من الاسراف في التذمر والتجني !

وانما اتوجه بهذا السؤال الى شعراء الشباب دون غيرهم لانني اوقن واطمئن الى ان غيرهم من الشعراء العامليين قد ادى رسالته كاملة او كالكاملة لا يشوبها غير اختلاف الغرض من الشعر اليوم عن الغرض منه فيما قبل اذ لم يكن همّ الشاعر وغايته من نظم الشعر الا التقليد والمحاكاة لمن تقدمه من اعلام الشعر في الفكر والخيال والاسلوب . واذ كان الشاعر اذا اراد ان يمدح او يذم او

يتغزل او ان يصور افكاره ويعبر عن عواطفه على تلونها وتشعبها لا بدّ له من امثلة شعرية يحتذيها وصور بارعة يعكسها ويولد منها أبياته وقصائده ويؤلف أنغامه وأناشيده فاذا اراد (مثلا) ان يتغزل نظر اولا الى من يتأثره من المتقدمين ، كيف كان يتغزل وبأي اسلوب ، فاذا رآه يبتدىء بوصف جمال المحبوب ووصف مميزاته الجسمية من طرف كحيل وخدٍ اسيل وثغر ألمى ثم يتخلص الى الاغراء والتملق حتى يسلس له قلبه وينقاد طوعاً او كرهاً الى هذه الخاتمة التي لا بد منها في الغزل الاباحي .. اذا رآه يفعل مثل ذلك ! ابتدأ صاحبنا وتخلص وانتهى على هذا النحو المعلوم . واذا رآه يبتدىء بالبث والشكوى وتصوير اثر الحب في حياته ووقعه على نفسه ثم ينتهي بالاستعطاف والتفاني في ذات المحبوب والتمرد على كل عاذل ولاحٍ كان ذلك منه كذلك : وهكذا كانوا في اي موضوع وفي اية مناسبة ينظمون بها لا بد لهم من دليل يرشدهم وقائد يقودهم الى الاسلوب والخيال الذي يختارونه لعرض افكارهم وإظهار مجاملاتهم وعواطفهم وانما الجواد الجواد منهم من كان يستطيع ان يجري في مصاف قادته وأدلائه او كان بوسعه ان يسبقهم او يستقل عنهم في بيت او ابيات يختلسها من اختلاف المواضيع والظروف وتفاوت الاذواق والافكار

الادلة على ان الغرض من الشعر هو التقليد

ولست في حاجة الى اقامة الدليل على مثل هذا الزعم فالادلة

كثيرة متنوعة ونظرة بسيطة الى الآثار الادبية الباقيــة كدواوين آل يحيى وآل الامين وآل فضل الله وآل مروه وآل شمس الدين ثم نظرة اخرى الى آثار من تقدمهم كأبي تمام والبحتري والمتنبي والرضي ومهيار وشعراء الاغاني ومعاهد التنصيص والسلافة يتضح لك واقع الامر وينكشف الغطاء عن تلك الصلة القويمة والتشابه القوي بين الاساليب وبين الاخيلة والصور وربما كنت على شيء من الحق اذا قلت بين الكثير من مفردات المعاني والالفاظ حتى في المواضيع الشعرية الجديدة التي لم يطرقها غيرهم من المتقدمين

النماذج الشعرية

واليك شاهداً على ما اقول هذه القطعة الشعرية لشاعر كبير من شعرائهم المتأخرين اراد ان يعلن براعته في المواضيع الجديدة ويصف القطار فاذا به يصف الناقة :

تتجارى والفكر في امد السيـ ـر فتجتاز غايــة الافكار
مشقت للحديد خطين وانسا بت فخاطت صحاصحاً بصحاري
نزعتهــا رماتهـــا اي سهم مرّ يغلــي مفوّق الاوتار
مارقا في حشاشة البيد تكبو ضلعا عــنه لمحــة الأبصار
بنت بر لا فارض وعوان هي بكر من اعظم الابكار
نشأت ذات صبـوة وغرام بعناق الفلا ووصل القفــار
واستشاطت تغيظـا وزفيراً وسعت بالصدى فضا الأقطار

فانظر اليها على ما بها من قوة السبك ومتانة الاسلوب وصفاء الديباجة هل ترى بعد تجريدها من هذا العنوان او من هذه الجملة (مشقت للحديد خطين) غير وصف عام من اوصاف الناقة على ما كان يصفها به المتقدمون من اعراب البادية والضاربين على وتيرتهم من المتأخرين .

ثم انظر الى هذه القطعة التي اراد بها وصف الباخرة

كلما زجها بجذب ودفع مارج في فؤادها من نار
فتحت للخصم عيناً ومرت بين اجفانها خيال ساري
تمخر اليم في جناجن صدر فترى الماء حولها كالسواري(١)
كلما أتلعت مناخير موج نحرتها بكلكل بتار ...
واذا الريح جعدت وفرات الغمر هبت تفلي جعود الغمار
تتخطى مناكب اللجج الشم على طولها بأيدٍ قصار
هي عجزاً قطا وعنقاً نعام وجناحاً قبج وصوتاً قماري
بنت بحر تخلقت من سجاياه بخلقي خلاعة ووقار
فهي ارسى اذا رسى من ثبير ليس يدرى جرت ام الماء جار
واوانا تختال تيهاً ورقصاً وفق تصفيق موجه التيار
فاذا صوبت تغص لتخوم الارض او صعّدت تحك السواري

أفلا ترى وانت تقرأ هذه الابيات ان هذه المعاني التي حشدها

---

(١) لاحظ هنا قول مسلم في وصف الفلك :

لطمت بخديها الحباب فاصبحت موقفة الدايات مرثومة الصدر

هي بنسبتها للناقة اروع واصدق منهـا بنسبتها للفلك وخصوصاً اذا جاز لنا ان نبدل هذه الالفاظ التي حورت بها معاني الناقة لتكون وصفاً للفلك او جاز لنا ان نضع :

(السراب) مكان (الخضم) في البيت الثاني

و (الأفق) مكان (اليم) و (الآل) مكان (الماء) في البيت الثالث

و (الحقف) مكان (الموج) و (بوخدها) مكان (بكلكل) في البيت الرابع

و (القفر) مكان (الغمر) في البيت الخامس

و (القنن) مكان (اللجج) في البيت السادس

و (البر) مكان (البحر) في البيت الثامن

و (شيحه والغار) مكان (موجه التيار) في البيت العاشر

ثم ما لفظ (اتلعت) وما كلمة (المناخير) وما كلمة (النحر) وما كلمة (الكلكل) في قوله :

كلما اتلعت مناخير موج نحرتها بكلكل بتار

وهل هي الا من خصائص الناقة .. وكذلك تتخطى بأيد قصار في قوله :

تتخطى مناكب اللجج الشم على طولها بأيـد قصار

وكذلك (الزج) و (والجذب) والدفع في قوله (كما زجهـا بجذب ودفع) ثم (التيه والرقص والاختيال) في قوله (وأواناً تختال تيها ورقصا)

. . .

وعلى هذا النحو يستطيع الباحث المدقق ان يمضي في استعراض هذه القصيدة الرائعة من اولها الى آخرها فلا يجد فيهـا اثراً للحرية والاستقلال الا بما شذ من ابيات قليلة افترضها على الشاعر افتراضا اختلاف الموضوع وتغاير الظروف ، ولذلك لم يكن فيها كشاعر ملهم متيقظ الفكر متوثب الخيال وانمـا كان كمحدث عادي ينقل اليك ما يراه بأيسر صوره وأبسط مظاهره او يحمل عليـه صوراً متكلفة مصطنعة لا يستسيغها الذوق الفني ولا تقرها طبيعة الموضوع والحقيقة المرعية في الخيال ، ثم بعد هذا كله سل نفسك عن السبب الاول والعلة الوحيدة في ذلك مـا هي ... أنقص في فطرة الشاعر ام ضعف في ملكاته الفنية ... ام قصور في لغتـه وبيانه .. كلا وانما هو محض التقليد .. او سل بيئته العامة والخاصة وثقافته العاملية والنجفية وما فطر عليه ابناء ذلك الجيل من تقديس الاجداد والتعبد بأمثال قولهم (هل غادر الشعراء من متردم) تجبك هـذه كلها مختلفة مؤتلفة بأفصح بيان واصدق حجة انه التقليد والتقليد الطبيعي في هذه الطبقة من شعرائنا .

ومما يؤكد لنا ذلك الزعم ما كانوا عليه من افتنان بالتخميس والتشطير والمعارضة وما اشبه ذلك من الاساليب التي يدور بها الناظم حول غيره من الشعراء ويتأثر خطاهم خطوة خطوة ، فقد كان الشاعر منهم الى الامس القريب. يترقب فرصة للنظم بظهور قصيدة او بالعثور على ابيات تثير اعجابه او تبعث نقمته ليشطرها او يخمسها او يعارضها وما عهدنا بالقصيدة الافريقية

مهلا على رسلك حادي الاينق ولا تكلفها بما لم تطق

او بخالية بطرس كرامة :

أمن خدها الوردي أفتنك الخال فسحّ من الاجفان مدمعك الخال

او بموشحات السيد محمد سعيد حبوبي او بقصيدة ابي الحسن الحصري :

يا ليل الصب متى غده اقيام الساعة موعده

وما عهدنا بهذه القصائد والموشحات وبما حسنه لشعرائنا من التلاعب بمعانيها والفاظها ببعيد عن الذهن . وقد تسابق في معارضتها اكثر من شاعر من شعرائنا الكبار كالشيخ ابراهيم صادق والشيخ محمد حسين شمس الدين والسيد عبد الحسين نور الدين

طرائفهم في النقد والجدل

وقد يكون اشد تأكيداً واوضح دلالة على مذاهب الادباء في ذلك العهد ، طرائفهم في الجدل وتمييز صحيح الشعر من فاسده تلك الطرائق التي اوشكت ان تنتهي في قولها الفصل الى المقارنة بين قديم الشعر وحديثه ، فما كان له مبرر ومشبه من القديم اقروه وصوبوه وما لم يكن له شيء من هذه المبررات شكوا في صوابه او لج بهم الجمود الى طرحه وانتباذه

واليك شاهداً على ذلك ، ما يرويه الثقاة من اختلاف العلامتين السيد علي محمود الامين والشيخ عبد الحسين صادق في مأتم العلامة السيد محمد نور الدين على بيت من الشعر يدعو به الشاعر آل الفقيد ان ينكسوا الهام وينفضوا الاكف يأساً من المجد والفخار بعد فقيدهم ، ومن ان الحجة المعتبرة والكلمة المسموعة بين ذلك الحفل المكتظ بالافاضل من اهل العلم والادب انما كانت للذي استطاع ان يستشهد على جواز ذلك المعنى وصحته من الشعر القديم بمثل قول مهيار :

اقريش لا لفم اراك ولا يد فتواكلي غاض الندى وخلى الندي
خولست فالتفتي بأوقص واسألي من بزّ ظهرك وانظري من أرمد
وهبي الذحول فلستِ رائد حاجة ُتقضى بطرور ولا بمهند
خلاك ذو الحسبين أنقاضا متى تجذب على ظهر المذلة تنقد

قمر الدنا أضحت سماؤك بعده ارضا تداس بحائر ويهتدي
فاذا تشادقت الخصوم فلجلجي واذا تصادمت الكماة فعردي

أما الاعتداد بالذوق الفني ومراعاة المقام وانه مقام تعزية ورفق وتكريم لا يليق فيه من شاعر حساس ان يتعرض للمعزّى من آل الفقيد بما يضعف رجاءهم ويقلل من هيبتهم ويجردهم من كل كفاءة بدلا من ان يخلق لهم بخياله جواً فسيحاً واسعاً من الاحلام والاماني المنعشة ، ومحلا سامياً مرموقاً من الثقة بمستقبلهم والاطمئنان الى حزمهم ونشاطهم ، اما ذلك وأمثال ذلك فلم يكن له من نفوس الحاضرين اي عناية او اي التفات .

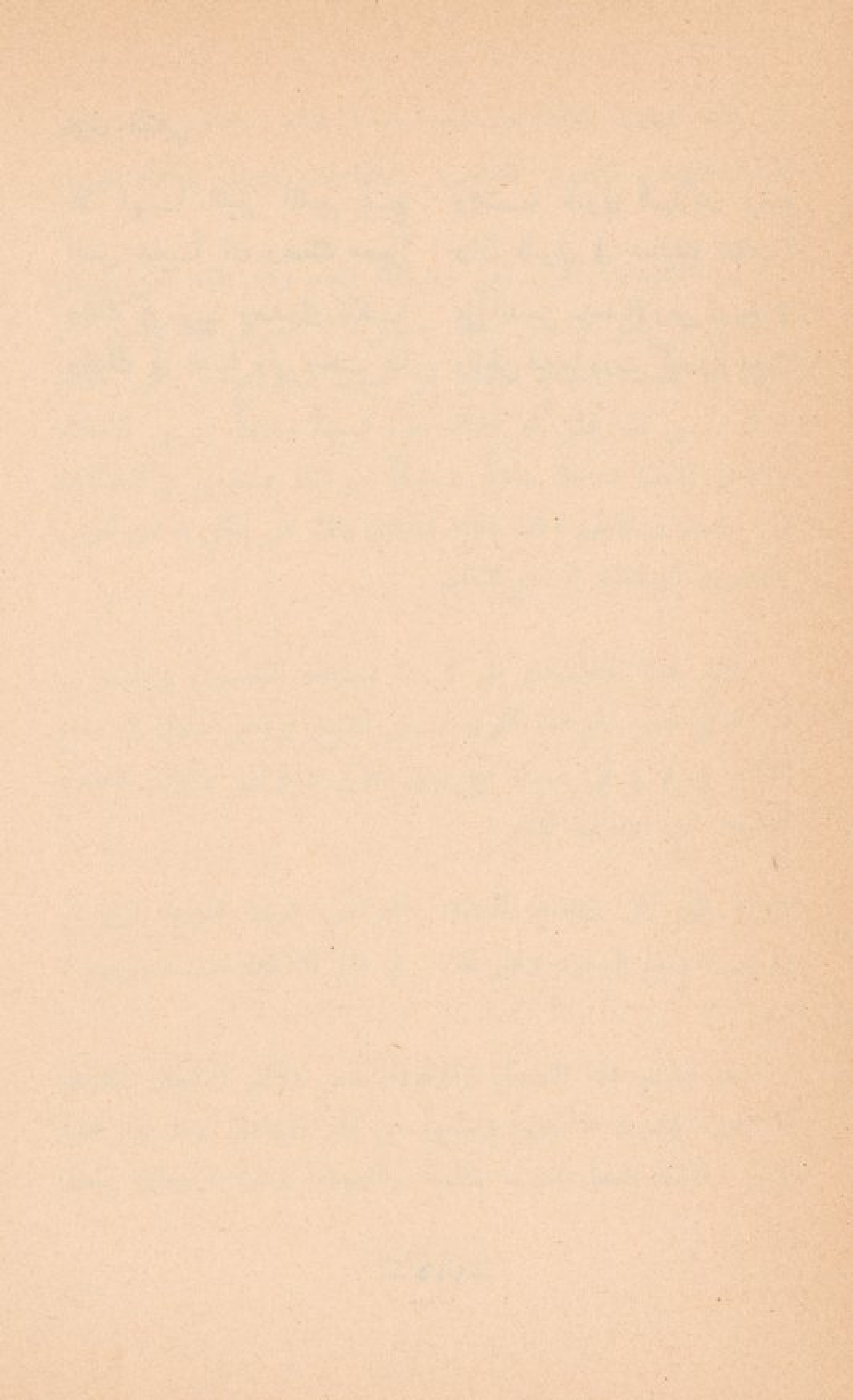
ولعل هذا الاطمئنان الى كل ما استباحه المتقدمون في الشعر .. هو الذي حسّن لهم هذا القول من الشيخ ابراهيم صادق في مدح الأمام (ع) على ما فيه من تمحّل واغراق وتجاوز للحدود الطبيعية من اوصاف البشر

عجباً تمنى كل ربع انه للمرتضى مولى البرية مربع
ووجوده وسع الوجود وهل خلا في عالم الامكان منه موضع ؟

وقد يصبح هذا التمحّل والاغراق من دلائل الاعجاز بنظرهم ما داموا يجدون له مبرراً ومشبهاً من آثار المتقدمين وما دام هذا المبرر والمشبه ينحط عنه سلاسة وانسجاما وغلواً ، كما ينحط

قول المتنبي :

الا ايها القيل المقيم بمنبج وهمته فوق السماكين توضع
أليس عجيباً ان وصفك معجز وان ظنوني في معاليك تظلع ؟
وانك في ثوب وصدرك فيكما على انه من ساحة الارض اوسع ؟!
وقلبك في الدنيا ولو دخلت بنا وبالجن فيه ما درت كيف ترجع ؟!



الوحدة والانسجام

في الشعر العاملي (١)

.. كان لابن جني هوى بأبي الطيب وكان كثير الاعجاب بشعره وقد شرحه شرحاً مطولاً وكان يسوءه اطناب ابي علي الفارسي في الطعن عليه : وما اتفق ان اجتمعا يوماً وقال ابو علي « اذكروا لنا بيتاً في الشعر نبحث فيه » حتى ابتدره ابن جني وانشد :

حلتِ دون المزار فاليوم لو زرت   لحال النحول دون العناق

فاستحسنه ابو علي واستعاده وقال : لمن هذا البيت فانه غريب المعنى فقال له ابن جني هو للذي يقول :

ازورهم وسواد الليل يشفع بي   وانثني وبياض الصبح يغري بي

---

(١) العرفان سنة ١٩٣٦ م ٢٧

فقال والله وهذا احسن فلمن هو ؟ قال للذي يقول :

امضى ارادته فسوف له قدٍ واستقرب الاقصى فثم له هنا

فكثر اعجاب ابي علي واستغرب معناه وقال لمن هـذا ؟ فقال للذي قال :

ووضع الندى في موضع السيف في العلى

مضر كوضع السيف في موضع الندى

فقال هذا والله احسن ولقد أطلت يا ابا الفتح فمن هذا القائل ؟ قال ابن جني : هو الذي لا يزال الشيخ يستثقل ظله ويستقبح زيه وفعله وما عليّ من القشور اذا استقام اللباب ؟

قال ابو علي : أظنك تعني المتنبي ؟ قال نعم ، فقال : والله لقد حببته الي ونهض ودخل على عضد الدولة فأطال في الثناء عـلى ابي الطيب ولما اجتاز بـه استنزله اليه واستنشده وكتب عنه ابياتـاً من شعره

لاحظ هذه المحاورة ولاحظ قول ابي علي : اذكروا لنا بيتاً من الشعر نبحث فيه : او لاحظ هذا الاسلوب الذي استدرجه به ابن جني حتى حبب اليـه المتنبي وجعله يعترف بشاعريته وتفوقـه ، وكيف ان ابن جني اكتفى لاقناعه واستثارة اعجابه بذكر بيت من كل قصيدة

لاحظ كل ذلك تر ان النقاد المتقدمين لم يكونوا ليوجهوا نظرهم

الى روح القصيدة وفكرتها العامة او لينظروا الى الشعر قصيدة قصيدة، وانما كانوا ينظرون اليه بيتا بيتا ويكتفون للدلالة على شاعرية الشاعر منهم ببيت او ابيات مختلفات قالها الشاعر في اغراض مختلفة وقوافٍ متعددة كما قد انفق لابن جني مع ابي علي الفارسي في هذه الرواية

فالناظم الذي كان يوفق في شعره الى بيت او ابيات تلائم ذوق الناقد الخاص وتمثل عاطفته او عقيدته بعض التمثيل، هو بغير شك الشاعر الفذ بنظر الناقد : وليس عليه بعدُ ان يلاحظ معرض ذلك البيت من القصيدة او مقتضاه من سياق الكلام، او تناسبه مع الغرض والموقف الذي تفرضه الظروف الخاصة على الشاعر او كونه من وحي الشعور والعاطفة او من وحي الذاكرة والحافظة، ما دام قد بلغ بذلك سؤله .

وعلى هذا النحو كاد ان يدرج الادباء العامليون او درجوا في ملاحظاتهم وانتقاداتهم « فان النقد عندهم ما انفك يقتصر على اللفظ المفرد او المعنى الجزئي ويعتمد على الذوق والسليقة الساذجة او على التأثر والانفعال بغير شرح او تعليل او رجوع الى قواعد مقررة » وانهم ما برحوا ينظرون الى شعر الشاعر منهم بيتا بيتا ولا ينظرون اليه قطعة قطعة، او يلاحظون الوحدة في القصيد والانسجام في السياق، والصدق في الشعور والاحساس، فالقصيدة مهما كانت متعددة الاغراض مضطربة الخيال سقيمة المنطق بموهة العواطف، مفككة الاوصال، هي – في عرفهم – قصيدة ما دامت تشتمل على بيت او

ابيات فيها شيء من زخارف البديع وشيء من خيال المجاز والتشبيه والاستعارة الذي ينتهي اقصى مداه في البيت والبيتين والثلاثة ، والشعر عندهم صحيح معتبر ما دامت تجمعه وحدة الوزن والقافية ، وموافقة القياس الصرفي والنحوي . وبهذا الاعتبار كثرت عندهم اسماء الشعراء وصحّ لديهم اكثر الاشعار المروية . اما الخيال العام الذي تنجلي به الصورة الفنية لموضوع الشاعر وغرضه وتنتظم بـه أشتات القصيدة حتى تصبح كلها كأنها جملة واحدة . واما المنطق والانسجام الفني الذي يستدرج بـه القارىء ويحمله عـلى الاقتناع بجمال تلك الصور وصواب فكرتها اما ذلك وامثال ذلك ، فربما كان لا لزوم له عندهم بعد الذي يظفرون به مما قد اقره المتقدمون واكتفوا به من محاسن البديع ومشخصات البيان

وانت اذا اردت ان تمحص الشعر العاملي على ضوء هذه النظرية نظرية الوحدة والانسجام فقلما تجد فيه مـا يثبت عـلى النقد حتى المنسوب منه الى المشاهير من شعرائنا ، فكم ترى مـن اضطراب ودوران واقتحام وتفكك في المعاني والالفاظ في جل الشعر المنسوب الى هؤلاء ونظرة بسيطة الى ما يشتمل عليه ذلك الشعر من العلل والامراض الفنية تكفي للشك في سلامته وتكامل نشوئه

واليك هذه القطعة المختارة التي سمعت الاستاذ الحوماني يرددهـا في مجالس عديدة قبل ان ينشرها في مجلة العرفان سنة ١٩٢٧ ثم في الطبعة الاولى من ديوانه الاول ثم يصدر بها مجلة العروبة سنة ١٩٣٤ فانظر الى ابياتها بيتاً بيتاً ترى ان اقصى منى الشاعر في اول بيت

منها حبيبة شامية بعيدة ما بين المقبّل والنحر ! اي طويلة العنق (١)

(١) من الشام لا جنات عدن اريدها
بعيدة ما بين المقبل والنحر

ثم تراه بعد يطوي في البيت الثاني تلك المراحل التي تكون عادة ما بين تمني الحب وبين الحب الواقع ، من تحر وتوسل ومصادفات وافتراضات مغرية ، ويفاجئك انه احب — متواضعاً او مفتخراً — محبوبة هزيلة غير سمينة يخرس الحلي في يديها ورجليها ورصينة تقية او جامدة بليدة لا تميل بها حتى نشوة الخمر !

(٢) كلفت بها لم يخرس الحلي جانيا
عليها ولا مالت بها نشوة الخمر

ثم يطوي كذلك هذه المراحل الشاسعة التي تكون ما بين اول الحب وآخره من قرب وبعد ، ونجوى وعتاب وتجنٍ الى غير ذلك من مقتضيات الحب وملابساته التي يمكن بعد ذلك ان يبرر بها عتبه وملامه ، ويطفر بك تواً الى العتاب والتقريع

(٣) احين قرأت السحر تملي فنونه
علي جفون منك تبعث بالسحر

---

(١) وفي ديوان الحماسة لابي تمام يقول :
اكلت دماً ان لم ارعك بضرة بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

(٤) نفرت كأن لم يجن من روضة الهوى

كلانا وما وافت سنوه على العشر

ويعرض عتابه هذا كما لو انه املى عليك تاريخ حياته الغرامية ورسم لك جميع مراحلها ودقائقها — ويلاحظ هنا — من تعليق النفور في البيت الرابع على ما في البيت الثالث ان الحب كان فجأة من خلسة نظر وان النفور كان على الأثر : ولكن في تعلق النفور بما يجيء بعده من الكلام ما يناقض ذلك ويدل دلالة صريحة على ان الحب كان بينهما طويل المدى مختلف الاطوار !!

ثم يطوي كذلك ما يكون بين مرحلتي العتاب والندم من انكسار فاضطراب ، فذهول ، فخمود ، فانتباه ، فتفكير ، فنقمة ، فسلوة ، وينتقل بك (بخفة ورشاقة) الى الندم بدون مبرر يبرر هذا الانتقال السريع سوى واو العطف — لو جاز ان يكون مبرراً — وذلك في قوله

(٥) وأدميت حتى ناجذي على هوى

جنيت به زهر الشبيبة من عمري

هذا الواو الذي عطف به (ادميت) على (نفرت) في البيت السابق بدون ادنى مناسبة او علاقة تربط بينهما !

ثم انظر اليه بعد ذلك الندم الشديد على ما فرط في الحب والهوى كيف يرجع القهقرى في حنينه لآرام جلق

(٦) احن إلى آرام جلق والهوى

يمثلها بين الجوانح والصدر

ثم كيف يتحول بعدها ويتمنى الوصول إلى جلق لا إلى الآرام التي حن اليها :

(٧) ألا هل اراني بعد عام ونيف

اباكرها غنـاء باسمة الثغـر

ثم كيف ينتقل بك فورا الى التبجح الفارغ بوطنيته وسهره على الشرق ومراقبة حوادثه وتصريف اموره كما لو كان من ابطال النهضة العربية والشرقية يضطلع بما اضطلع به فيصل وسعد وغاندي :

(٨) سئمت حياتي فيك يا شرق ساهراً

عليك اما يرجى لصبحك من فجر

ويطلق هذا البيت كأن قد صور لنا فيما مرّ من ابياته سلسلة حياته في الجهاد ومكابدة الأهوال : ومكافحة الاستعمار وتأديب الخونة والجواسيس ولم يبق عليه إلا ان يطلق هذه الزفرة الحارة !

ثم انظر اليه كيف يطفر بالقارىء اعتباطا الى ذلك الاستفهام النابي الذي يستفهم به عن شذا النسيم

(٩) اظنك من روض الشآم بعثت لي

شذى المسك يرويه نسيمك إذ يسري

ثم الى هذا المنطق المؤثر ! من انه لو لم يكن هذا النسيم من جلق لم يمزج به شعره ويتحفنا بهذا المعجون الغريب الطعم !

(١٠) ولو لم تكن من روض جلق باعثا

نسيمك لم امزج برقتـه شعري

أرأيت كيف يريد ان يثبت لنا رقة شعره بهذا القياس المموه والكناية البعيدة الخاطئة ويحملنا قسراً على احترام ذلك النوع من الاشكال السفسطائية الفارغة او على الاقتناع بصحة نتائجها

ثم بعد هل ترى في هذه القطعة من خيال يؤلف بين صورها المتناكرة او من فكرة تجمع بين ابعاضها المتدابرة المشتتة او من منطق يقنع القارىء بما يذهب اليه الشاعر من غاية وبدعيه من وجد ام كل ما هنالك جمل مزوقة وابيات مفككة لا يتصل بعضها ببعض او يترجم عن شعور صادق وعواطف صحيحة

وغاية ما في الأمر ان اديبنا المحترم (عنّ على باله) ان يتغزل كما يتغزل الناس واراد ان ينظم فنظم هذه القصيدة كما ينظم المتغزلون عادة ولو لم يكن هناك غرام ولو لم يكن حب. ولكنه مع الاسف لم يوفق فيها الى ما يوفق اليه الشعراء الوالهون من ابناء — كيوبيد — او الذين يواتيهم الفن ويعينهم على وصف عواطف الغير التي يحسنون معرفتها ويبرعون في تصوير ملابساتها ودقائقها ولو لم يشعروا بها ويجدوها في قرارة نفوسهم لذلك لم يسلم من ان يضطرب اضطراب المتكلفين في اختلاق الصور واصطناع المواقف، كما هو الشأن في اغلب شعرائنا من الشباب المخضرمين في نشأتهم الادبيه، حتى اوشكوا ان يكونوا في حال تأثرهم غير قادرين على تصوير عواطفهم بالصورة الفنية الصحيحة بدون ان يتخذوا لهم نموذجا يحكونه ومثالا ينسجون على منواله.

هذا ولعل القارىء إذا نظر الى تلك القصيدة من نسيب

بدوي الجبل :

أحببتها ساخرة كالرؤى	مبهمة غامضة كالظنون
مجنونة والحسن لم تكتمل	فتنته إلا ببعض الجنون
طروبة ضاحكة كالصبا	كئيبة قاتمة كالمنون
اليأس في اجفانها والمنى	والضحك في الحانها والانين
وخفة الايام في طبعها	لكن بعينيها وقار السنين

ورأى كيف ان البدوي عمد إلى مثال حبيبته الذي يستهوي قلبه فصوره بأبرع صورة ثم كيف انعطف نحوها يستدرجها ويناجيها بأرق المعاني واسمى الصفات الروحية بعد ان تخلص من المقام الاول ووفّاه حقه :

يا صورة ابدع تكوينها	في مطلع الفجر إله الفنون
ونغمة من بعض الحانها	همس الليالي وارتعاش الغصون
ونفحة لله عطرية	ندية حيا بها اليائسين

ثم كيف لاذ بها يستعطفها ويسألها ان لا تنكر عليه الحب وشهود حاله التي اوردها على افتن مثال شعري وأبلغ لهجة موسيقية مؤثرة :

لا تنكري حبك لي انني	استشهد الريحان والياسمين
والنهر اذ تنظر امواجه	لا استحي منها ولا تخجلين
والايكة الخضراء إذ ابصرت	تبذّل الحسن الشهي المصون
وقبلة مجنونة في اللمى	وقبلة وادعة في الجبين
وقبلة حمراء مثل اللظى	وقبلة بيضاء مثل اليقين

لعله اذا نظر الى ذلك يعرف هنالك قيمة الصورة التي يهواها شاعرنا العاملي ويطمح الى ان يجلوها لنا في شعره ، ثم مبلغ الصدق في ذلك الحب ومحل العتاب واسلوب التقريع في هذا البيان .

ثم يعرف بعد هذا كله أي فرق هناك بين الشكلى والمستأجرة او بين الشاعرية الحقة المؤثرة والشاعرية المتكلفة المموهة بالالفاظ والنقوش ؟!

العواطف المصطنعة[1]

ربما كان الشاعر غريبا عن محيطه ومجتمعه في افكاره واخيلته وهواجسه ، أما ان يكون غريبا عنه بعواطفه وميوله فذلك مما يستغرب وقوعه عادة لان العواطف الصحيحة من حب وكره وسخط ورضا وما الى ذلك انما تنشأ وتتجه وتتكيف على حسب عوامل المجتمع وظروف البيئة . ولهذا نرى ان ما يصبو اليه المدني — مثلا — ويتأثر به من مظاهر الطبيعة والحياة قد يختلف كثيراً عما يصبو اليه القروي من ذلك ، وربما كان ما يصبو اليه احدهما ويعجب به هو من التوافه لدى الاخر ، وكان المبتذل هنا نادراً هناك والنادر هناك من المبتذلات هنا التي لا يشعر بقيمتها ولا يوثق بجمالها او يتأثر لمرآها ، اذ ان الابتذال من شأنه ان يطمس ما في الاشياء من روعة وجمال ويضعف من اثرها على الحس والعاطفة ولا يبقي لها من غرابة

---

(١) مجلة الامالي ٩٣٩

المنظر ودهشة المفاجأة وعوامل التعجب مـا يكون عـادة للاشياء العزيزة النادرة .

لذلك لا احسبني مسرفا اذا ما ارتبت بصدق بعض هـذه العواطف التي يفترضهـا شعراؤنا المتجددون نحو تلك الموضوعات الجديدة ، كالعليقة ، لأبي ماضي ، واوراق الخريف لغصوب ، والفراشة الخضراء لشرارة ، وما الى ذلك من العناوين الجديدة التي يطفح بهـا الادب الغربي ، وليس لها هذا الاتصال بما يشغل افكارنا من مناحي الحياة الحديثة ولا بما يضغط على عواطفنا من مآزقها الاجتماعية والنفسية او يأخذ علينا كل سبيل من ازماتها السياسية والاقتصادية والروحية ، لابتذال هذه الاشياء وهوانها في محيطنا وغرابتها عما نتأثر بـه ونستوحيه من احوالنا وآدابنا ومجتمعاتنا وثقافتنا العربية ، وكوننا لم نبلغ بعد من القوة والترف والاطمئنان الى الحياة الحرة ما يسمو بنا عما نصطدم به من ضروريات ونهفو له من لياقات لنتخطى ذلك ونفرغ منه الى مثل هذه الكماليات اللاهية ، بخلاف الشعراء الغربيين فان انصرافهم الى مثل هـذه الموضوعات لا يتنافى مع ظروفهم واوضاعهم ومكان بيئتهم من الحضارة والترف في الحرية والثقافـة والعمران ، وبعدها عن الارياف والمزارع التي يبتذل فيها مثل هذه الحشرات والنباتات المبتذلة في بيئتنا ومحيطنا

ومما يعزز شكي بمثل هـذه العواطف التي يفترضهـا شعراؤنا المتجددون او يتكلفونها ، انهم حين يشرعون بتصوير الموضوع على هذا النحو الغريب عن عواطفنا الريفية سرعان ما يتحولون عنه الى

تصوير ما يتأثرون به من حالات او يصطنعونه من مذاهب التشاؤم والتفاؤل او ما اشبه ذلك من الاتجاهات التي ليس لها هذه العلاقة المتينة بموضوعهم ولا بموقفهم الشعري والاستطراد الى ما ينبو عن مقتضى المقام والموضوع — هو كما لا يخفي — دليل على عدم التأثر به او على كذب العاطفة نحوه ما دام الصدق يوجب على الشاعر تصوير بواعث العاطفة ونقل ملابساتها لا ما ينبو عن ذلك وينافيه .

العليقه

لا اخال ان شاعر الحياة الاستاذ ايليا ابا ماضي ينكر عليّ ان الجو الطبيعي للحماسة انما يتهيأ ويتسق مع الحياة بوحيه وإلهامه أزاء خطر مداهم او عدو متغطرس او على اثر الجحود لما نستشعره في نفوسنا من قوة وحياة وفي ارواحنا من سمو وعبقرية ، لا على اثر الاصطدام بشوكة والخوف على الثياب من التخميش كما يبدو من الحماسة على اثر قوله في العليقه :

صنت عنها حُرّ وجهي	فتصدت لثيابي
كلما أفلتُّ من ناب	تلقتني بناب

لذلك استميح العذر منه اذا ما اضطررت هنا الى الشك بصدق عاطفته نحو العليقه او بصدق عاطفته في الحماسة ، فان الصدق في عاطفته نحو العليقه كان يقضي عليه ان يمضي في وصفها الى الآخر او يستطرد

ـ اذا اخطره الامر ـ الى ما يناسب اوصافها من حالات ويتفق مع مقتضاها من شعور ، لا الى حماسة الواثق بحولهـــا وطولها او استعطاف الخائف على حياته من خطرها ، فانه مهما افترضنا للعليقـه من اوصاف واعتبارات فلا يمكننا ان نفترض لها صورة صحيحة تشعرنا بالخطر المهدد لحياتنا والاستخفاف العابث بكرامتنا ثم تقضي علينا بان نتحمس ازاءها او نستعطف قوتها وجبروتها علهـا تمهلنا ان نقضي وطراً من الحياة او نستنفذ كل مـا في دن انفسنا من شراب .

وكذلك الامر في صدق عاطفته الحماسية فان صدق الحماسة يفرض عليه الا يحسب كل هذا الحساب للعليقه والا يتوهم ان في كيانها كل هذا الحول والطول ليلتجيء بغير موجب الى هذا الاستعطاف الذي يدعو للشك بصدق حماسته واعتداده بنفسه لان من يعتد بنفسه لا يجمل به امام القوى الوهمية التي يفترضها للعليقه بحدسه (لا بشعوره) ان يخضع لها ويخشع بمثل قوله :

انا للارض وان طال عن الارض اغترابي
غير اني لم يزل ضرعي لمري واحتـــلاب
فاذا استنفذت ما في دن نفسي من شراب
فاجذبيني ان يكن مني نفع للتراب

اجل ما عسى ان تكون العليقه وهل هي غير شوكة او نوع من انواع النباتات الشائكة الـــتي يعبث بها الاطفال متى شاؤوا

ويطيرونها رماداً بعود من الكبريت ؟! هل هي غير ذلك ؟ ليليق بالشاعر المتحمس المتفائل ان يقف منها موقف المستسلم لبطشها واقتدارها ، الخائف على حياته من خطرها ، كأنما قد رمته التقادير امام مارد جبار او في عرين ليث ضارٍ !

وخلاصة القول ان ما اثبته شاعرنا هناك من اوصاف العليقه وخصائصها لا يوجب هذه الحماسة او هذا الاستعطاف والجزع حيالها وان هذه الحماسة وهذا الاستعطاف والخوف لا يتناسب مع ما صوره من اوصاف العليقه .

وعلى ذلك لا يمكن ان يكون قد تناولها بعاطفة واحدة في صدقها لدى المقامين الوصفي والحماسي لان العاطفة الصادقة نحو الموضوع الواحد تقضي بتناسب كل ما يستطرد فيه الشاعر من الخواطر والصور المختلفة وبانسجام ذلك كله في بناء الصورة العامة وضبط السياق واحكام الوحدة . ولا سيما اذا قلنا بان الشاعر رسول الجمال . وان جمال الاشياء في تناسبها وانسجامها . اذ من اولى من الشاعر — المفروض فيه دقه الملاحظة ولطف الاحساس والذوق — بان تتناسب معانيه وتتناسب الفاظه وابياته وصوره ومواقفه في القصيدة الواحدة ليتسق له من هذا التناسب والانسجام صورة صحيحة للجمال الفني تنم عن صدق العاطفة وسمو الذوق واستقامة الفكر والمنطق .

اوراق الخريف

عندما فتحت ديوان القفص المهجور لاول مرة شرعت اتصفح العناوين واتخطى ما ليس له في نفسي هـذا الاثر البليغ الى ان اوقفني هذا العنوان الغريب عما يمارسه شعراؤنا من افكار وموضوعات وحالات وأهاب بي الى استطلاع ما يرسمه الشاعر اللبناني بازائه من صور ويستخرجه في ظلاله من عبر ، ولكن قبل ان اهم بالقراءة هفت بي وساوس ـ الفضول ـ الى عوالم من التخيل رحبة وفجاج من التفكير بعيدة فتصورت ، فيما تصورت ، ما يكون لهذه الاوراق في بدايتها من منظر بهيج ومظهر أخاذ بما يتراوح عليها ويتخللها من زهر وثمر ، وخضرة واخضلال ، ورونق وجلال ثم تأملت بما تؤول اليه في نهايتها من خشونة ونحول ، وفوضى واضطراب ، وتداع وهوان ثم ألـّفت من مراحل هذا التطور مثلا شائعا في الحياة ومقياسا عاما لنواميسها ومجراها في كل شيء حتى اذا بلغ بي المطاف الى دور الانشاد والقراءة اقبلت استجلي بدافع من الثقة والاحترام رأي الشاعر ووحيه الخاص ، فاذا به مضطرب في امره حائر في هذه القصيدة بين ان يوفي الموضوع حقه وبين ان يوفي عواطفه حقها ، واذا بهذه الحيرة تضطره الى تكلف الاستطراد وتكلف الرجوع الى الموضوع اكثر من مرة كما ترى في قوله :

فكأنهن ـ اي اوراق الخريف ـ اذا خفقن جوانحي
وحفيفهن كأنه زفراتي

زفرات مصدور تقارب يومه   فحياته معدودة الساعات
وجم الطبيب وقد تبين داءه   ومضى يخاف تساؤل اللحظات
هيهات ما كتم الطبيب فانه   باد بعـين الام والاخوات
يمسحن دمع العين كتما للجوى   وأرى خطوط الدمع في الوجنات
لا تمسكي يا ام دمعك واسكبي   فالنفس قد بلغت الى اللهوات
وتناثري يا خافقات في الهوى   فحياتكن قصيرة كحياتي

وهكذا دواليك الى ان تنجلي المعركة وتنتهي القصيدة واذا به انما يصور حياته الخاصة ويشرح تشاؤمه وبؤسه، واذا بالموضوع لا محل له من خيال الشاعر واتجاهه الا بمقدار حاجته الى التشابيه الشارحة المفسرة التي تكاد تتلخص في هذه الابيات القائمة من مجموع القصيدة بمقام الاكواع من الطريق الملتوية

نثر الخريف على الثرى اوراقه   فتناثرت كتناثر العبرات

. . .

فكأنهن اذا خفقن جوانحي   وحفيفهن كأنه زفراتي

. . .

وتناثري يا خافقات في الهوى   فحياتكن قصيرة كحياتي

. . .

وعلى الثرى الاوراق يشبه نثرها   آمال هـذا العمر منتثرات

. . .

فانظر ترَ ان الشاعر لم يقصد الى تصوير مـا يكتنف اوراق

الخريف من حالات ومظاهر وخصائص وما توحيه من صور وافكار وانما قصد الى شرح احواله وتفسير ما يكن في نفسه من يأس وفي ذلك ما فيه من الدلالة على ان الشاعر لم يتشبث بهذا العنوان بدافع من الوجدان والعاطفة نحوه، وانما تشبث به تأثراً للادب الغربي او مجاراة (للموض) الجديدة، والا لأتانا منه بصورة كاملة ولم يجعله عكازاً او طريقاً للعبور الى صور اخرى .

الفراشة الخضراء

لا سبيل للمتعمق في اتجاه هذه القصيدة غير الاعتقاد بان عواطف الشاعر ومطامحه فيها قد كانت متجهة اما نحو مظاهر الحياة المادية كما يتصورها في وصف الفراشة وما تتصل بـه من جمال الطبيعة حيث يقول :

خلقت كما تهوين في عالم شعري	أنيق المعاني رائق النظم والنثر
حواليك من آلاء نيسان جنة	كستك وشاحا من غلائلها الخضر
لك الروض عذبا مترعا من بشاشة	يجلله فيض من النور والعطر
لك النهر يجري سائغا متدفقا	تمتعت من نعماه في نهر يجري
لك الطير تشدو في الصباح وفي المسا	فتغشاك من انغامها نشوة السحر

واما نحو الحياة الروحية كما يتجلى من اسفه وتمنيه في اواخرها حيث تفيض اللوعة من قوله :

فأية حسنى تزدهيني لأغتدي نضيرك في الدنيا وأوهامها ازري
وهذي الاماني لجة النور افرغت فلم ألفها الا خيالا من السخر
وهذا الهوى سر الوجود ومجده يطيل بنا الايام في ألم الفكر
وهذا الصبا روض الحياة تعطلت اغانيه ما بين الاسى والشجى المر

اذ لا مجال للاعتقاد بصدق عواطف الشاعر او صدق طموحه وتأثره بكلا الموقفين والناحيتين لتعارضهما او تناقضهما بحكم الوجدان والذوق الفني الذي يقدر مبلغ الفرق بين حياة الشعور والتفكير ونشوته الروحية ، وبين حياة الاكل والشرب والراحة من اعباء التفكير والشعور ! ولكن مثل هذه الحياة المادية البعيدة عن نشوة الشعور والتفكير لا يمكن ان يكون لها هذا الاثر في نفس الشاعر ولا هذه القيمة والا لما كان لعواطفه الانسانية هذا الاضطرام وهذه الحدة الماثلة في قوله :

والا فما قدر ابتسام مزيف لهيب بقلبي وائتلاق على ثغري
أأضحك والاوهام تملأ عالمي وتهزى بمرآه على وضح الفجر

ولما اعتراه هذا التبرم وهذا التشاؤم لو صح انه ينزع بعواطفه ومطامحه الى مثل تلك الحياة المادية الميسورة له ولكل انسان حين يكتفي منها بما تناله الفراشة من متع مشاعة لكل معدوم الحس والشعور من الطير والهوام ، اذ لا يحتاج المرء في الوصول الى مثل هذه السعادة الا الى شيء يسير من الاقتناع بقطيع من الماعز ! وشبابة من القصب وقد يصبح اسعد حالا من الفراشة ومن كل طائر

متى وطن نفسه على مثل هذه الحياة يتحول بقطيعه من واد مريع الى ربوة معشبة ويتجه بألحانه من جدول متكسر الى غدير فياض فيقوم بواجبه من العمل ويأخذ بحظه من مرح الحرية ومتع الطبيعة لا يخشى ختل القناصين ولا يشعر بغير جمال الكائنات يرف حوله بينما يلحن الطير من غير ان يشعر بما حوله اذ يتنقل خائفا من الختل متنكراً من الفتك الى غير ذلك مما يحمل الشاعر الحساس على الاشفاق لا على الاغتباط ويدعوه الى الانكار لا الى الاكبار والغيرة ?! كما حمل من صوّره في مثل هذه الحال وقال :

حائر كالطائر الخائف قد ضيّع وكره
فوقه البازي والاشراك في نجد وحفره
فهو ان حط الى الغبراء شك السهم في صدره
واذا ما طار لاقى قشعم الجو ونسره

وعلى كل فان الاستاذ شراره — في قصيدته هذه — انما كان همه في ان يتصور شبحا من الاشباح ليبثه آلامه ويناجيه لا لان لهذا الشبح مكانه الراسخ في عواطفه وقلبه ، والا لتجرد له في بيانه — كما تجرد ابو ماضي في مثل هذا الموضوع — ولم يند عن مقتضى ذلك في استطراداته والتفاتاته .

ثم هل يظن الاستاذ انه خرج بقصيدته هذه عن تلك الخطة التقليدية التي كان عليها الشعراء المتقدمون من وصف حالة الطير وتصوير نحو من انحاء حياته ليعقبوا على ذلك بوصف شقائهم وتشاؤمهم بتعظيم

الفارق الذي يميزهم عن الطير في البؤس والشقاء كما يتجلى في قول شاعر الحمدانيين :

أقول وقد ناحت بقربي حمامة   أيا جارتا هل تعلمين بحالي
أيضحك مأسور وتبكي طليقة   ويسكت محزون ويندب سالي
أيحمل محزون الفؤاد قوادم   على غصن نائي المسافة عالي
معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى   ولا خطرت منك الهموم ببال
أيا جارتا ما انصف الدهر بيننا   تعالي أقاسمك الهموم تعالي
تعالي تري روحا لدي ضعيفة   تردد في جسم يعذب بالي
لقد كنت اولى منك بالدمع مقلة   ولكن دمعي في الحوادث غالي

هل يظن انه خرج عن هذة الخطة بغير ان جعل الفراشة في مكان الطير وافترض لها شيئاً من اوصافه وحالاته الشعرية اذ كانت الفراشة قريبة الشبه من الطير في اكثر شؤونها .

العاطفة في الشعر الجديد[1]

بقلم حنا اسطفان

نشرت مجلة الامالي مقالـين حول العواطف المصطنعة في الشعر الجديد ... للاستاذ علي الزين حمل فيه على الموضوعات الجديدة التي يطرقها الشعراء المتجددون ، وانتخب من كثيرها : العليقة لأبي ماضي ، وأوراق الخريف لغصوب ، والفراشة الخضراء لشراره ..

يعيب الكاتب على هؤلاء وأمثالهم انتخاب مثل هذه العناوين التي لا تتصل بما يشغل افكارنا من مناحي الحياة الحديثة ، ولا بما يضغط على عواطفنا من المآزق الاجتماعية والنفسية ، والازمات

---

(١) واحسب ان الاستاذ اسطفان انما يعبر عن رأي الاستاذ شراره في انتقاد فكرتي .

السياسية والاقتصادية ، كما انه يستهين بهذه الاشياء لغرابتها في محيطنا زاعماً انه لا يجوز ان نتخطى « الضروريات ونفرغ منها الى مثل هذه الكماليات اللاهية » . وقد يعذُرُ الشعراء الغربيين وحجته في إعذاره « ان موضوعاتهم لا تتنافى مع اوضاعهم وظروفهم وبيئتهم »

لم اعلم كيف يجيز الاستاذ لنفسه الخوض في مثل هذا البحث، ويستهدف لغضب الشعر عليه ، عندما حاول حصره في دائرة المآزق الاجتماعية والازمات السياسية وما اليها ؟!

وكيف يفترض ان هؤلاء الشعراء المجددين يتكلفون العاطفة عندما يخرجون عن محيطنا ودائرة تفكيرنا الضيقة !؟ أيظن الاستاذ ان الشعر يخضع لمثل هذه الظروف ، وانه عبد تسيره الحوادث الاقليمية بأنفه ، كما يجر مروضُ الحيوانات دبه كيف شاء ؟ وهل للشعر حدود ومقاييس ودوائر اذا تخطاها وقع في الشرك ؟ وهل مثل الشاعر في الادب مثل الطبيب يبضع الدمامل ويداوي القروح ام هو فوق كل هذه المناسبات ينشد في هدأة نفسه ما يستعذبه من الالحان ويتناول الحجر الجلمود ويحوله بين يديه الى كتلة من الاحساس الرقيق !...

عرّف أرسطو الشعر بقوله : « على الشعر ان يتناول الممكن والمثل الاعلى » اي ان ينظر الى الاشياء كما ينظر اليها كل فن من الفنون ، ولكنه يخلع عليها نسيجاً فنياً من ألوانه المتراقصة ، الفانية في بعضها . يلمس الحجر فيفجر منه عيونا وخدوداً ومباسم

ولكنه لا يغير طبيعته ..

وما فرضه الاستاذ علي الزين على الشعر يتنافى مع طبيعته ويتلاءم والنثر ، فالشعر يرتفع بنفوسنا الى اجواء خيالية يخلقها الشاعر ، فإما ان يصقل صفحتها او يجهمها . واما النثر فيزحف بين مراتع الناس ومضاجعهم يصور حالاتهم ويحل مشاكلهم ، ويتبطن ألسنتهم فهو كما تريد يا استاذ يتصل بكل ما تريد .

لذلك لا افهم كيف تأبى على الشاعر هذا الاتساع بالخيال ، والانفلات من القيود الصدئة عندما تتحول عاطفته الى العليقة فتتلبس اشواكها وتتسرب مع جذورها في الارض ، وقد تريد فتجعل العليقة نفسية عاقلة تعطي القارىء امثولة قد يسهو عنها وأتعجب كيف تساءل الاستاذ عن خضوع الشاعر وخشوعه امام القوى الوهمية كما يسميها !

الشاعر يختلف عن العالم الطبيعي وعن المهندس والخطاط ، هو دائماً كما عبتَ عليه يرى الاشياء من خلال عاطفته وخياله ، اذا تناول القضية فلكي ينفخ فيها انفاسه انغاماً تسيل وتملأ الكون بسمات او دموعاً ، وليس كما يراها العالم : اين تعيش واين تنمو ؟ والى اي فصيلة تنتمي ؟

وهذا الجموح بالاخذ في الموضوع الذي يعزوه الاستاذ الى عدم صدق العاطفة عند الشاعر ، هو سر العبقرية وتفوق الشاعرية فعندما

يتصل الشاعر بالموضوع ويمزج بـه عاطفته حتى تمتزج العاطفة فيـه تتولد بالموضوع تلك البهجة التي يظنها الاستاذ قلقـاً وتناقضاً ، ويغتلي في نفسه صراع هائل بين ما تبين له وبينما يحاول تبيينه . وقال في « اوراق الخريف » : « ان الشاعر لم يقصـد الى شرح خصـائص اوراق الخريف وانمـا قصد الى شرح احواله وتفسير نفسه » . وهكذا يكشف لنا الاستاذ الزين عـن قيمة الشعر في نفسه فلا يرضاه الا صورة عن منظر هز قلب الشاعر ، ينقـله الى القارىء بارضه ولون ازهاره وعدد اغصان اشجاره وما يتفيـأ في ظله من الاعشاب الطفيلية ، واما ان يكلمنا عن تأثيراته وما بعثته فيه من العوامل النفسية فهذا دلالة عـلى اصطناع العاطفة حين ان الشاعر لا يستطيع ان يتناول الموضوع من هـذه الناحية الباهتة فكل الاشياء لا قيمة لهـا بنظره الا اذا حركت شاعريته واحسها بخياله ، فاذا افرغها فبفيض مـن تلك الشاعرية وذاك الخيال ، ثم انه يرى « الفراشة الخضراء » صورة « حمامة » ابي فراس الحمداني وينحي عـلى تجديد الاستاذ شرارة زاعماً ان خطته خطـة تقليدية مسبوق اليهـا وأرى ان الشعراء المجددين يستطيعون ان يكونوا كذلك فيما صدق من الشعر القديم ، وقد اريد من كلمة « قديم » ذلك الشعر الذي يعـني بتعداد صفـات الملوك ووصف الابـل والخيل والبكاء عـلى الاطلال في عصر البخار والكهرباء لا ذلك الشعر الذي يرتقي بالنفس الى اسمى درجـات الشاعرية كقول امرىء القيس :

سموت اليها بعد ما نام اهلها   سمو حباب الماء حالا على حال

فلا يعني ان الاستاذ شرارة كان مقلداً عندما نظم قصيدة « الفراشة الخضراء » وليست قصيدة « الحمامة » للشاعر الحمداني الا نزعة التجديد في ذلك العصر القديم .

فالعاطفة في الشعر « عاطفة » لا تعرف قديماً ولا جديداً !

ثم العواطف المصطنعة

... وتقديراً لغيرة الاديب ، حنا اسطفان ، على المثل العليا والحقائق المجردة اتقدم اليه بهذه الملاحظات الحرة وأتوجه نحوه بهذا الخطاب البريء ، عساه يصيخ بقلبه لما اسوقه من حجج وأتشبث به من مزاعم ، فنبلغ بذلك قصارى حظنا من توحيد وجهات النظر واجتماع الرأي ، او يتكرم فيشرح لي وجهة نظره في تفنيد ما أتشبث به وتسفيه ما أراه ، ويقدم للقراء ما يقنع المنصفين منهم بصحة مدعاه وصدق حجته : فان الناقد الحق من يشرح لنا علل الحسن والقبح ، وعوامل الصحة والفساد فيما ينتقده ويفنده ، لا من يقول هذا صحيح وهذا فاسد ثم ينطلق مع هواه وغايته او يقف كالمترفع عن الجواب اعتداداً بسمو مكانته !!

●

(١) بما اني اعتبر عنوان القصيدة رمزاً لفكرتها وموضوعها ، أجدني مضطراً لان اقيس ، خيالها ، ومنطقها ، وما تشف عنه من عواطف الشاعر ، على مقدار صلة هذه الامور وانطباقها على العنوان والموضوع ، إذ ليس للناقد في عرفي طريقة مستقيمة يمحص بها ، جمال

الفن وصحته ، وصدقه ، مثل ان يتشبث بموضوع القصيدة وغرض الشاعر ، وظروفه ومواقفه الخاصة ، التي تستأثر في توجيه ملكاته الفنية باتجاه خاص ثم يقيس على ذلك ما في الشعر من خيال ، ومنطق ، وعاطفة .

وعلى هذا الاساس والاعتبار قد جريت في نقد « العليقة » واوراق الخريف ، والفراشة الخضراء ، معتداً كل الاعتداد بهذه النظرية ، وهي : ان الاستطراد الى ما ينبو عن الموضوع والمقام ، دليل على عدم التأثر به او على كذب العاطفة نحوه ، ما دام الصدق يوجب على الشاعر ان يصور بواعث العاطفة وان ينقل ملابساتها ، لا ان يصور ما ينبو عن ذلك وينافيه .

واذا كنت قد استعنت على تقريب مزاعمي وتأييدها ، بكون تلك الموضوعات لا تتصل بما يشغل افكارنا من مناحي الحياة ومآزقها ... فهل اكون بذلك — كما شاء ادب منتقدي الفاضل — قد حملت على كل موضوع جديد ، وعبت على الشعراء انتخاب مثل هذه العناوين !؟ او استهدفت لغضب الشعر عليّ ! وتطفلت على البحث ومناقشة المخلصين لفنهم ومثلهم الاعلى من الشعراء ؟!

●

(٢) وكذلك انا لم اذهب في مقالي ذاك الى استحالة مخالفة الشاعر بعواطفه لبيئته ومجتمعه ، وانما ذهبت — مع ايراد المرجحات —

الى ان ذلك مما يستغرب وقوعه عادة ، لأبرر شكي في صدق العاطفة من تلك القصائد التي تناولتها بالبحث والتحليل فلا يعترض عليّ اذن بشذوذ بعض العبقريين من الشعراء في بعض مواقفهم العبقرية فان ذلك لا يمكن ان يتخذ دليلا على صدق غيرهم في كل موضوع وفي كل موقف ، على ان اولئك العبقريين حين يتمردون على عوامل البيئة والظروف ويشذون عن المجتمع بأميالهم وعواطفهم لا يتكلفون ولا يتراخون عن تصوير بواعثها وملابساتها وشرح عللها واسبابها بما يلائم الذوق والمنطق ويقنع القارىء بما اقتنعوا به من خصائص الموضوع واثره على النفس.

اقرأ قصيدة ابي ماضي في ـ الفراشة التائهة ـ ولاحظ كيف يصور البواعث لعاطفته الغريبة عن مألوف الجمهور وكيف يشرح الملابسات والعلل بما لا يختلف عن موضوعه وغرضه ولا عن مواقفه وظروفه :

لو كان لي غير قلبي عند مرآك ... لما اضاف الى بلواه بلواك
فيم ارتجافك ؟ هل في الجو زلزلة ... ام انت هاربة من وجه فتاك
وكم تدورين حول البيت حائرة ... الى آخر القصيدة ...

ثم انظر اليه كيف يبتدىء في تصوير حيرة الفراشة ثم في تصوير جمالها وخطير امرها بنظر الشاعر وكيف يتدرج في خياله ومنطقه وبيانه مع ادوار حياتها الى النهاية ، ثم تأمله بعد كيف يظهر إكباره لها ، وفتنته بها ، وجزعه عليها من خلال ذلك ، ولا ينسى في استطراداته كلها ـ على

تنوع الصور الشعرية والالتفاتات الذهنية ـ موضوع شعره ولا غرضه ولا ظروفه ، كما انه لا يهمل مراعاة النواميس الادبية واصول الجمال الفني ، كما قد اهملها ونسيها هو وزميلاه في قصائدهم الثلاث .

●

(٣) يقولون : أن قد تساءلت الصحف والاقلام ، عن امكان اجتماع حبين في قلب واحد ، وفي آن واحد ، ثم لم تنعم بجواب غير النفي والاستحالة او الندرة والشذوذ .

ويقولون : ان الحب اذا تمكن من قلب الانسان جعله لا يستسيغ ـ في حديثه عن المحبوب ـ ما ينبو عن ذلك وينافيه كما يشهد بذلك قولهم :

لم ادر ما أنهجتى غير انكم   في اللحن لحني وفي الاعراب اعرابي

وقولهم :

في كل آونةٍ خيالٌ يسنح   غسي بذكركم الحميد ونصبح

واذا كان من المستحيل او الشاذ ، اجتماع حبين في قلب واحد او كان من المستحيل او النادر ان يستسيغ المحب ـ في حديثه عن المحبوب ـ ما ينبو عن ذلك ويغايره ، فهل يمكن ـ والحالة هذه ـ ان يخرج الشاعر عن مقتضى هذه القاعدة في تصويره للموضوع الذي تأثر به واخلص له ، ليكون استطراده ـ على ذلك

النحو ـ غير مخلٍّ بما يقتضيه صدق التأثر به او غير مشعر بفتور العاطفة واصطناعها .

●

ثم هل يشك شاك ، بان الغزل الذي كان يتقدم المدح ومــا شاكله من الاغراض والموضوعات في شعر المتقدمين وبخاصة المتقادمين ، هو غزل مصطنع لا اثر فيه لصدق العاطفة وانفعال الوجدان ، مع ان الكثير منه ـ بفضل براعة الفن والمحاكاة ـ يشتمل عــلى تصوير اظهر خصائص الحب وأدق حالاته

فمـا الذي حمل المؤرخين والنقاد عـلى الاعتقاد والقول باصطناع ذلك الشعر وكذبه ، غير تناقض مواقف الشاعر واستطراده الى ما ينافي الصدق في عواطفه الغرامية ، حيث تدل القرائن عــلى الكذب والصدق في البيان اكثر مما يدل الكلام نفسه .

وانه لولا ذلك لما تهيأ لبعض المتطرفـين بشكهم ان يزعموا ان المتنبي غير شاعر ! لانه لم يحب مع انه هو القائل :

جهد الصبابة ان تكون كما أرى   عــينٌ مسهدة وقلبٌ يخفــق
مــا لاح برق او ترنم طائر   الا انثنيت ولي فؤاد شيــق
جرّبت من نار الهوى ما تنطفي   نار الغضى وتكل عمــا يحرق
وعذلت اهل العشق حتى ذقتـه   فعجبت كيف يموت من لا يعشق

●

(٤) اننا حين نحكم على امر من الامور ، بانه صحيح او بانه فاسد لا نحكم بذلك الا بعد ان تتضح لنا وجوه الصحة ووجوه الفساد فيما نحكم عليه ، وكذلك الشأن حين نقول عن شيء انه حسن او انه سمج قبيح فلا نقول ذلك الا بعد ان نستشعر وجوه الحسن ووجوه القبح فيما نتحدث عنه .

ومما لا شك فيه ان من هذا الشعور الطبيعي العام الذي يتحد ويلتقي في اغلب احكامه الفردية وفي اكثر مناحيه الجزئية ، تُستنبط المقاييس العامة للصحة والفساد وتتألف الموازين الصحيحة للحسن والقبح ان في الشعر او في غيره من الفنون . وان مقاييس الجمال انما تنتزع من الجمال نفسه :

وعلى هذا يمكنني ان اقول : بانه اذا صح لنا القول بان الشاعر او بان الشعر لا يخضع للمقاييس والقواعد فانما يكون المراد بذلك من المقاييس ، المقاييس الاجتماعية والاخلاقية والتعليمية التي تفرض على الشاعر اتجاهاً خاصاً لا يتسع لحرية الشعور والتفكير والقول ، ومن القواعد ، القواعد العلمية من رياضية وطبيعية وما اشبه ذلك مما يلتزم الحقيقة والواقع ولا يتأثر بالجمال والروح والعاطفة ، لا تلك المقاييس الفنية التي تتمثل بها شخصية الفنان ويشترك في وضعها ذوقه وعاطفته وخياله ، فهي بذلك ملاك الفن وروحه ، وعلى مقدار تأثر الشاعر بها وتذوقه وتقديره لها يكون نصيبه من فهم الشعر واجادة نظمه والتحليق في أجوائه لانها من الشعر في الصميم ومن الادب بمنزلة

العقل من الخيال الجامح

تصوّر كيف يكون حال الشعر من الاضطراب والتفكك والغموض لو اننا سايرنا القائلين بالجموح والانعتاق ، ولم نراع فيه الحدود والمقاييس التي تناسب عصر الشاعر وخواص لغته وطبيعة حياته بان تركنا العاطفة الشعرية على سجيتها تسترسل بنفسها وتعمل بوحيها بدون ان نشرف عليها بافكارنا ونحتكم فيها الى اذواقنا فنروض جامحها ونرتب خيالها المبعثر ترتيباً طبيعياً يوضح القصد بانسجامه ويقنع القارىء بمنطقه وسحره الفني . وهل يمكن ان يكون الشعر — في هذه الحالة وعلى هذا الفرض — الا من هذيان المحمومين وتمتمات الخرس ؟؟

ولو ان سر العبقرية وتفوق الشاعرية — على حد قولك — كان في الفوضى وتخطي الحدود والمقاييس التي يقررها الذوق والمنطق ، لانحصرت العبقرية في الجنون ! واختص التفوق في المجانين !

●

(٥) ثم انه اذا عرف ارسطو الشعر بقوله « على الشعر ان يتناول الممكن والمثل الاعلى » فهل تراه قصد بذلك الى نقض ما نؤثره من اقوال قادة الفكر كقولهم :

« ان للمظاهر والحوادث الطبيعية والنفسية نتيجة وعلاقة وتسلسلا

لذلك يجب ان يكون الخيال والمنطق في الشعر جاريا على حسب الطبيعة لا يفككه اضطراب ولا يقطعه استطراد او شذوذ، والا كان مخالفاً للنظام الطبيعي فاقداً لجمال التوازن والتناسب في الفن الذي لا يتم الجمال والكمال فيه بدون ذلك ».

وقولهم: « انه ليس الغرض المباشر من الفن هو تصوير العاطفة — على ما بها من اضطراب وتشويش — اذ القيام بهذا الجهد في الواقع ضرب من المحال، وانما غرض الفن تصوير العاطفة راضهـا العقل وأخضعها واسبغ عليها حلة رائعة من جمال التناسب والنظام »

أم تراه يقرهم على ان التوازن والتناسق شرط اساسي من شروط الجمال الفني وسر من اسراره لا يستقيم لنا القول بصحة الفن وصدقه بدون ان نتحقق من وجود هذا الشرط وهذا السر فيه، مهما أبحنا للشاعر من الاتساع بالخيال والانفلات من القيود الصدئة، على حد قولكم، بل احسبه لا ينكر علينا: ان الاستطراد الى ما يند عن الموضوع والغرض والظروف، إمـا ان يكون لاختلال في فطرة الشاعر ومراكز تفكيره، وإما لاصطناع العاطفة نحو الموضوع وتكلف النظم وكذب الشاعر.

●

(٦) واذا كان لا يُطمأن في واقع الامر الى صدق الشاعر

الا بان ينقل عاطفته نحو الموضوع ـ بنوعها ودرجتها ـ بتصوير منبع تلك العاطفة وشرح ملابساتها ، ليرى القارىء في الشعر ما قد رأى الشاعر نفسه اذ ان ترك هذا التصوير الذي يثير العاطفة ويبعثها والاكتفاء من الشاعر بذكر آلام نفسه وافراحها لا يحمل القارىء على التصديق والتأثر لآثاره لانه لا يرى داعيها والحامل عليها وانما يسمع دعاوى بلا دليل يبررها .

اذا كان الامر ما ذكرنا فهل تُرى يكون الشاعر صادقاً في عاطفته نحو الموضوع حين يشرح احواله الخاصة ويفسر نفسه المستقلة ، ويتكلم عن تأثراته البعيدة عما يلابس الموضوع من صور وعما يكتنفه من اجواء ، ليكون الاستاذ (غصوب) صادق العاطفة في قصيدته « اوراق الخريف » مبرراً لحماستكم واندفاعكم في نصرته من غير روية وعلى غير اساس متين ؟؟

على اننا لا نرتاب بان الشاعر حين يتكلم عن عوامله النفسية وعن تأثراته البعيدة انما يعبر بذلك عن عاطفة صادقة قوية الصدق ، ولكنها غير عاطفته نحو الموضوع طبعاً ! وان من صدقه في هذه الثانية المباينة للاولى نستدل على تصنعه ، اذ لم يجعل الله لرجل من قلبين في جوفه !

●

(٧) اما قولكم : فعندما يتصل الشاعر بالموضوع ويمزج به

عاطفته حتى تمتزج العاطفة فيه ، تتولد بالموضوع تلك البهجة التي يظنها الاستاذ قلقاً وتناقضاً ويغتلي في نفسه صراع هائل بين ما تبين له وبينما يحاول تبيينه »

فهذا انما يمثل حال الشاعر قبل النظم او عنده لا حالته في طبيعة شعره وصورته بعد النظم اذ يجب هنالك ان تكون عواطفه وأخيلته وافكاره منسقة واضحة ، والا اضطر للنزول على حكم صاحبنا « بول فاليري » وهو ما ينكره صاحبك شراره كل الانكار اذ يقول من كلام له :

« والقول بان صورة الفوضى لا بد وان تأتي فوضى حقيقة لا تنطبق على الشعر وان انطبقت في بعضها على التصوير لان الشاعر يقدر على تنظيم افكاره وعواطفه وعلى ان يسوقها في قالب لا ينقص من طبيعتها ولا يفكك من وحدتها ، ثم يبرزها جلية واضحة ، وسيرى القارىء ، بان هذه الحقيقة خطر على الفن خطر على الشعر خطر على الادب جميعاً »

●

(٨) وليـ-ـد كل فحسبي ان تسلموا معي بان الاستاذ شرارة في قصيدته (الفراشة) انما كان همه في ان يتصور شبحاً من الاشباح ليبثه آلامه ويناجيه ، على طريقة ابي فراس لا لان لهذا الشبح مكانه الراسخ من عواطفه وقلبه ، حسبي ذلك لنتفق على ان العاطفة

في الشعر عاطفة ، لا تعرف قديماً ولا حديثاً ، وعلى ان ما كان خالياً من العاطفة اما ان يخرج عن كونه شعراً ، واما ان يكون شعراً كاذبا مصطنعاً يراد به ـ وجه الموضة ـ لا النفس في استقلال حواسها واضطرام عواطفها وشعورها ، ولو ان ابا فراس لم يتخذ « الحمامة » طريقاً للبث والشكوى على نسق قولهم :

أيا شجر الخابور ما لك مورقاً   كأنك لم تجزع على ابن طريف

بان جعلها موضوعاً لشعره ومسرحاً لخياله ، ومداراً لعواطفه لكان موقفنا معه موقفنا مع الاستاذ شرارة حين جعل (الفراشة) موضوعاً لقصيدته ، وان كان الفارق بعيداً

●

(٩) ويبقى الجواب على تعجبك من استنكاري لحماسة الاستاذ ابي ماضي واستعطافه على اثر ما صوره لنا من حال العليقة فاليكه مفصلا :

هل لك ـ ايها المنصف ـ ان تجادل في ان كل عاطفة لا ترتكز على الايمان بحقيقة ما ، هي عاطفة كاذبة متكلفة ، وعليه فما عسى ان تكون هذه الحقيقة وهذا الايمان الذي ارتكز عليه ابو ماضي في اظهار عاطفته الحماسية حين انشد :

قلت يا ساكنة الغاب   ويا بنت التراب
لا تلجي في اجتذابي   او فلجي في اجتذابي

ان عوداً فيه ماء ليس عوداً لاحتطاب
انا في فجر حياتي انا في شرخ شبابي
الهوى ملء فؤادي والصبا ملء اهابي

وهل تراه — وهو الشاعر — الواثق بالنفس المتهلل للحياة العازف للمستقبل — كان مؤمناً بحول العليقة وطولها الى حد انه خاف على حياته من خطرها واضطر الى ان يقف منها موقف المصانع المستعطف بمثل هذه اللهجة :

أنا للارض وان طال عن الارض اغترابي
غير اني لم يزل ضرعي لمري واحتلاب
فاذا استنفدت ما في دن نفسي من شراب
فاجذبيني ان يكن مني نفع للتراب

وعلى تقدير ان تراه صادق اللهجة في مقام الاستعطاف والحماسة فهل ترى انه اخلص لموضوع قصيدته (العليقة) حين اقتضب وصفه اقتضابا واستطرد الى ما ينبو عن مقام التأثر به من حالات ، وينافي مقتضى الاخلاص له من اتجاه ومحاولات ؟

واذاً فهل يستطيع النقد ازاء هذا الاقتضاب وازاء هذا الاضطراب ، ان يخرج في حكمه على الشاعر عن واحدة من ثلاث ضعف الشاعرية ، او اختلال في مراكز التفكير ، او اصطناع العاطفة نحو الموضوع

وتكلف القول فيه تكلفاً يصعب معه التوسع في الوصف والمضي في تصوير خصائصه وتطوراته الى الحد الذي يتطلبه الاخلاص ويوحيه صدق العاطفة والشعور ؟

ولكن الاكبار لشاعرية الاستاذ ابي ماضي ، والايمان بشخصيته الادبية والفكرية يدفعنا الى الاصرار على اتهام عـــلى عاطفته نحو العليقة ، لا اكثر ولا اقل .

من حديث المصح

هذا الحديث وان يكن وجدانيا في روحه وانشائيا في معناه بيد أنه يمت في نهايته الى نقد العواطف المصطنعة باقرب الاسباب واصدق البيانات : مما لا يستطاع انكاره في ادب الرثاء والتأبين والمدح ، لذلك اثبتناه في هذا الباب :

●

ا ـ اخي الاستاذ الفاضل ..

تحية الواثق المكبر وعاطفة المخلص المشتاق ، وبعد فكم وددت ان اؤثر غيرك من الاصفياء بهذه الرسالة الصاخبة وان القاك بغير هذا الجو العابس والصوت الخافت واللهجة الضارعة ، ولكـــن أبى لي فرط الجزع والاشفاق مما شاهدت وأحسست ثم فرط الثقة والاطمئنان الى نبل عواطفك ومرونة طبعك ، في توجيه كلامي على وجهــه الصحيح البعيد عن كل ما يمس الكرامة ويغمز الاباء الا ان استرسل مع الصدف والمناسبات وانزل على حكم القائلين :

ولا بد من شكوى الى ذي مروءة يواسيك او يسليك او يتوجـع

اخي انني ما برحت منذ دخلت المصح ابتعد ما امكن البعد عن التعرف على المرضى والبائسين : وخاصـة اذا كانوا في حال يأس وجزع ، لانني وان بالغت في السخر من كوارث الدهر تنزل بي وتحديت نكباته بقول القائل :

ان كان عندك يا زمان بقية مما تضيم به الكرام فهاتهـا

فما زلت اضعف وتضطرب اعصابي للمنظر الشجي والخبر الممض والمصيبة الفادحة تحيق بغيري من الناس ، ولكن الصدف شاءت لي في هذا العيد السعيد – بغير المصح – ان اذهب لمعايـدة بعض اصدقائي الذين انتقلوا الى حيث يقيم الفتى البائس النجيب حسن عواضه : من حاضرة الجنوب النبطية : وشاء لي دافـع المروءة وادب اللياقة ؟ ان اتعرف اليه وان اجلس عند سريره أواسيه واستقرىء خبره واتفقد احواله الصحية وازماته النفسية والاقتصادية

فاذا بي امام طائر بهيج قد هيض جناحه ، ووردة فواحـة الشذى لم تتفتق اكمامها للحياة والنور حتى اجتاحتها عواصف البؤس والشقاء وألقتها في قبضة الداء الوبيـل تضرع وتضطرب وتتلاشى بين آلام مبرحة وحرارة مضنية ، وبحّة خانقة تضيق لها الحنجرة ويخفت الصوت الحنون ، ذلك الى وحشة الغربة ومرارة الفاقـة وذل الالتجاء وغصة القنوط ، الى ضغط المناسبات والذكريات

على الاحساس المرهف والفكر العنيد من فتى في مقتبل العمر تتطاير نفسه حسرات كلما اهل عيد من الاعياد بافراحه ومباهجه، او شاع خبر من ألاخبار عن موطن احبابه وخلانه او اقبل زائر من الزوار يتفقد احوال جيرانه وزملائه من المرضى ويختصهم بالعطف والحنان ، وكلما تلفت الى ماضيه وذكر اقرانه في المدرسة واخدانه في ملاعب الحي . ومنافسيه في معترك الحياة كيف دارت به وبهم الايام ، فمشوا قُدماً نحو اهدافهم البعيدة وقعد عجزاً لا يهفو باخيلته وامانيه الى شيء غير الصحة والعافية او الخلاص من دنيا البؤس والألم ؟

واذا بي ازاء مشهد مريع مفجع وجو قاتم مكفهر يزعزع النفس لوعة واسى ، ويفطر القلب رحمة وحناناً ، ويلهب البيان نقمة وسخطاً على هؤلاء المحسنين الذين لا يعرفون سبيلاً للبر والاحسان والخير غير هذه السبيل التي الفوها في التزلف الى المستبدين او الدجالين او المشعوذين من السادة والقادة من غير ما سؤال عن فائدة هؤلاء السادة في بلادهم ، وعن اثر اولئك الاقطاب في امتهم ، او عما حققوه لها من المشاريع الحيوية النافعة التي تسدد خطانا في محاربة الآفات والاوبئة الفتاكة من جهل وفقر ومرض واستعباد وتمكننا من توجيه حياتنا الاجتماعية والسياسية نحو هدف انساني نبيل يصون مستقبلنا من التدهور الاخلاقي والسياسي والاقتصادي .

اما مثل هذه الضحية من ضحايا النواميس الجائرة والاوضاع

القاسية التي حرمته من اسباب الراحة والدعة والاطمئنان ، ودفعته قسراً عن مقاعد الدرس الى جو خانق من اجواء المصانع والمعامل انهك قواه ، واذاب جسمه ، واثخن صدره ثم قذف به الى مباضع الاطباء وايدي الممرضات وملاجيء المنكوبين بصحتهم وراحتهم وآمالهم ، وتركه صريعاً يئن من ألم الجراح ، جراح القطيعة ، وجراح الداء ، وجراح التفكير في سوء العاقبة وهول المصير .

اما مثل هذه الضحية فليس له من عطفهم واهتمامهم ما يجبر قلبه الكسير ، ويمسح جرحه الدامي ، او يلطف جوه المثقل بالهموم وينعش فيه بعض الامل والرجاء ذلك بان النزعات الشخصية والاغراض الحزبية والتقاليد الموروثة لم تحدد قيمة هذا النوع من العطف والحنان ، ولم تنبّه الى اثره في كسب الحظوة والشهرة والجاه ؟ ؟

. . .

هذه صورة من صور العيد في المصح ، وهي كثيرة متنوعة تتفاوت وتختلف ثم تنتهي الى نقطة واحداة من البؤس والالم والقنوط ، فتصور حال أخيك ازاءها ، ثم سلني كيف انت ؟ وما عسى ان اكون غير زفرة في إثر زفرة ثم نقمة في إثر نقمة او لعنة تتبعها لعنات ؟ ؟

غفرانك اللهم ؟ ألهذه المشاهد والحالات والصور آثرتنا بالاحساس

والشعور والعاطفة ؟ ثم قلت « وبشر الصابرين الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وانا اليه راجعون » اذن فهنيئاً للاصنام والتماثيل الحجرية ؟ ومرحى ثم مرحى للجلادين والسكارى ؟ وإنا لله وإنا اليه راجعون ؟

اليك اله الخلق ارفع رغبتي (١) عياذاً وخوفاً ان تطيل ضمانيا (٢)
فان كان براءً فاجعل البرء نعمة وان كان فيضاً (٣) ناقض ما انت قاضيا

مصح . . . في ٢٧ — ٨ — ١٩٤٦

٢ — اخي الاستاذ . .

سلام على ايام السرور بقربكم وعلى ليالي المرح في مغناكم ، وبعد فهل لمحت الطير تضطرب لافراخها وهي في قبضة الصياد ؟ او بصرت بمن يشرف على فلذة كبده وهو في غمرة اليم لا يستطيع ان يدنو لانقاذه ولا يقوى على رؤيته يستغيث ولا يغاث ؟! ذلك هو قلبي وهذا هو شأني تجاه هذا النضو العليل ، حسن عواضه : وهو بين مخالب الداء ينظر الى من حوله في عزة مخذولة ويأس مرير : فاني منذ تعرفت عليه واحطت علماً بخوالج نفسه الكليمة وتاريخ حياته المحزنة اصبحت لا يقر لي قرار ولا يهدأ لي خاطر .

فاذا تهيأت لي اسباب الوصول الى مكانه القصي ودنوت من

---

(١) الضمان : ما يصيبنا من البلاء والزمانة . (٢) الفيض : الموت .
(٣) من شعر عمرو بن أحمد الباهلي

هيكله العظمي واشرفت على خياله المسجى تزعزع كياني وانهارت قواي لروعة ما أحس وهول ما ارى من احواله واوضاعه ، وقد بدلته الاسقام واحالت نضارة صباه الى عظام نافرة ووجنات شاحبة وانف منصلت وشفاه ذابلة وعيون غائرة خاشعة توشك ان ترعب وتخيف لولا بارق من جمال الالم يهز القلب رأفة وحنانا ، وهالة من جلال اليأس تأخذ اللب هيبة واكباراً ، وتذهل النفس عما حوله من صرعى البؤس وانضاء السقام وعما يكتنفه — في ذلك الجناح الخاص — من وحشة الجوار ، وجفوة الخدم وقسوة الممرضات على مثله من اللاجئين الى كنف الحكومة ورحمة الاقدار .

ولولا باعث من الحرص على تعزيز معنوياته والاحتياط لراحته والمبادرة الى ما يجب من اسعافه ومساعدته على اسقامه وآلامه ، لتخاذلتُ وطال انتكاسي في عاصف من التأوهات والتمنيات الحارة ، ولكن أخذي بتحضير ما تدعو اليه ضرورة الحال من علاج او مأكل او مشرب واسراعي الى ما يرفه عنه من ملاطفة وتهوية وتجفيف عرق وتغيير وسائد ومراقبة همسه وتلبية اشارته ، هو الذي كان ينعش قواي ويشعرني بشيء من الغبطة الروحية لا اعرف له من سبب الا هذا الاطمئنان الى انني اقوم ببعض واجبي تجاه الانسانية المعذبة في شخص هذا الحريب الضاوي الذي اقصاه نبله وانفته عن تملق اللئام واستعطاف الجفاة واستخدام الحيلة والمكر .

...

واذا حال مانع من الموانع الصحية او الجوية بيني وبين الوصول الى مثواه فحالي اذ ذاك لا يختلف عن حال ام رؤوم غادرت وحيدها في حومة الوغى وباتت تضرب اخماساً في اسداس وتحسب الحساب لكل سانح وبارح ، فما ليلي غير تصورات وافتراضات مريعة ، وما تهويمي غير هواجس واحلام مخيفة .

فكلما اصطكت الحناجر بالسعال وعلت حشرجة المصدورين وامتد لها ثهم في جنح الظلام الحالك ، تصورته – في مثل هذه الحال – وهو يضطرب كالطير الذبيح برهة من الزمن ينخطف بها نفسه وتجحظ عيناه ، ويحتقن وجهه ، ويندى جبينه وتتخاذل يداه عن كل شيء حتى عن المنديل والمبصقة .

وكلما دق جرس النجدة والاستغاثة في جانب من جوانب المصح ، تمثلت نحوله واسقامه ، وخفوت صوته ، وخجله من صلف الناس ، وعجزه عن القيام والقعود وعن حمل ما يحتاج اليه ، ثم تمثلت اضطجاعه في غرفة ليس فيها غير السقيم العليل من امثاله قد خلت من وسائل الاسعاف والنجدة حتى من جرس يلجأ اليه المضطر في استنجاد الممرضات واستعطاف الخدم :

وكلما رن صوت وارتفعت جلبة في غرفة من غرف المشرفين على الهلاك تخيلته وهو في سكرات الموت يوزع نظراتـــه ذات

اليمين وذات الشمال فلا يرى احداً من اهله واصدقائه ومريديه يحنو عليه ويسعفه ويعينــه في هذه الشدة الــتي تسترّق النفوس وتستصفي القلوب وتستدر العطف والحنان من اشد الناس صلابة وقسوة .

واذا انفتح باب او شع ضياء واجتاز حارس الليل بسمتــه الرهيب ووضعه المريب طار صوابي وهفا قلبي الى مهــد البؤس ومثوى الألم الى حيث يقيم حسن ، لا الوي على شيء ولا آبه لشيء فلا هذا الجو بصفائه وازدهار نجومه ، ولا اشعة القمر الفضية بانعكاسها وتكسرها على صفحة ذلك الشاطىء الحالم ، ولا هــذه المدن والقرى ، بانتشارها بين السفوح والهضاب وتماوج انوارها وتألقها تألق التيجان على هام الجبابرة ولا شيء من هذه الطبيعة الساجية الساحرة باستطاعته ان يصرفني عن الاهتمام بشأنه او يشغلني بتصور شيء غير بلواه او رؤية شيء غير عيونه تصحو وتحدق في طموح قليل نحو مــن يجيره ويسعفه ثم تغفو وتغرب في صراع عنيف مع داعي الفناء والموت وغير صدره يعلو وينخفض ، ونفسه يضطرب وعرقه ينهل ، ولسانه يهمس بما لا يكاد يبين من كلمات الضراعة والاستسلام للارادة الحكيمة الجبارة ،

لا شيء من هذا كله بقادر على ان يهّون خطبي في محنته

والحاح الزمان والداء على صباه الغض وروحه العذب وقلبه الكبير الساخر من الحياة والموت في وداعة ورزانة وشمم توشك ان تجعله – وهو في غمرة من الفواجع والآلام – المثل الاصيل لقول الشاعر .

هو في قبضة الخطوب انتفاض من اباء ولفتة من عناد
يخنق الزفرة الجموحة في الصدر ويجري مع الحجى باتآد(١)

...

اما نهاري فصمت وتفكير في طباعه واوضاعه ، ودرس وتحليل لاقواله وافعاله وما تنم عليه من نبل وأنفة ، وحساسة بارعة ، وعقل حصيف وارادة حازمة ، وصبر جميل على عسف القضاء والقدر وجور الليالي والايام .

واني لا ازال اذكر – بمضض واعجاب – من اقواله وافعاله ومزاياه ما يصور جوانب شخصيته الفذة ويمهد السبيل الى تقدير ما ضاع من ملكاته وخصائصه الروحية في قرار البيئة الخاملة ، وفي مجاهل الفقر والبؤس ، وفي مهاوي الحرمان من وسائل الثقافة الصحيحة والدرس العميق ، ثم من دواعي الغبطة والثقة والطموح الى ما يناسب استعداده الفطري من حياة مجيدة ومستقبل زاهر

---

(١) من شعر عمر ابو ريشة

فمن ذلك انه على نحوله وهزاله بحيث لا تراه يختلف عن الهيكل العظمي بغير الجلد والعصب ، وعلى ضعفه وعجزه عن القيام والقعود ثم عن النوم الا على جنبه الأيسر ، وعلى ما ينتابه من الحرارة الشديدة ومن وجع الرأس والاضراس وألم المعدة وتورم القدمين والتهاب الجانب الذي ينام عليه من اقصاه الى اقصاه على هذا كله لا تسمعه يشكو او يتوجع او يفوه بكلمة تزعج الجار وتروع المحب :

ومنها ان تراه — وهو على مثل تلك الحال من الضعف والالم — يتجلد ويكظم ألمه ويتكلف من الحركة والكلام والانتباه فوق ما يتحمله ضعفه وتسمح به اوجاعه — عندما تزوره والدته اوجدته وعمه او اي شخص يطمئن الى عطفه وحبه — ليوهمهم انه بحالة صحية تدعو الى الاطمئنان والتفاؤل وهدوء البال ذلك مع شعوره بنهاية اجله وانقطاع كل امل بالشفاء من علته .

ومنها ان تراه — على اختلاف عوامل الفقر التي تحيط به وعلى يأسه من بر والده واهله وعلى فراغ ذات يده وحاجته الى النفقات الزائدة في غربته وشدته — يضيق ويمتنع عن أي مساعدة مالية مهما تفننت في الاحتيال الى اقناعه بوحدة الحال ورفع الكلفة ، وانه على ما يعتقده من عطف عمه — زوج والدته — واستعداده لكل تضحية في سبيل راحته ، ما برح يتكفف في مصرفه ويقتصر

على الضروري من مساعدة عمه خشية ان يتكلف له فوق ما تتحمله امكانية صاحب عائلة كبيرة قد خانه الحظ في مسعاه وأخطأه التوفيق في كسب الثروة .

ومنها انه طلب الى احد اصدقائه في ذات يوم ان يأتيه ببعض المنعشات من الممرضة التي تشرف عليه ولما شعر بانها لم تحترم ذلك الصديق في جوابها ، اغرورقت عيناه بالدمع ، وقال في غصة المخجول – هذا بسببي ؟؟

ومن ذلك اني حسنت له – وقد تناهي بضعفه – ان يعود الى اهله او يدعوهم اليه يستروح عطفهم ويلوذ بحنانهم من هول ما يلاقيه من شدّة وينوء به من كرب ؛ فما إن شعر بهذا حتى اومأ الي وقال – بلهجة بيروتية جازعه – أنى يكون ذلك ؟ وعودتي ألى اهلي خطر على صحة اخوتي الصغار أفضل عليه ألف غربه والف عذاب ! واستحضار والدتي الى هنا يضاعف جزعها علي وجزعي لها ولا ينقذني من ألم الحياة او خطر الموت ! حسبي من احلام السعادة ان اخفف عن اهلي بعض العناء ؛ وحسبني من واقع البلاء ان اصاب بنفسي ؛ ثم حسبي من جميل العزاء هذا العطف والاهتمام من مثلك ! : ان غصص الموت يا سيدي واحده لا فرق فيها بين ان يكون المرء اسيراً في غربته او اميراً في بلدته ؟؟

...

هذا قليل من كثير مما سمعته وشاهدته وشعرت به من احوال هذا الفتى الناشىء واوصاف هذا الغريب المجهول حتى بين اهله ومواطنيه ، فما عسى ان يقول فيه الالمعي المنصف ؟ وما عسى ان ينتهي اليه الفكر النافذ من نتيجة وحكم ؟ ومـــا عسى ان يكون لذلك من اثر على الوجدان الحي والعاطفة النبيلة ؟؟ ذلك ما اتركه لشعور هؤلاء الذين اقصاهم العرف الزائف واضلهم الغرور والتمويه عن التقرب بعطفهم وثقتهم ، واكبارهم ، الا للناشئين في ظلال الارستقراطية والمغمورين بنعيم الصحة والثروة والجاه

•

وبعد فهل تظن اني بهذه الكلمة وفيت بكل ما انتهى اليـــه الفكر والحس والخيال من حياة هذا المنكوب ومزاياه ، اثنـــاء هذه المدة القصيرة التي عرفته فيها ، وحاولت ان اقوم بشيء من واجب المواساة والنجدة ، هيهات ؟ فان ذلك ابعد منالا واقصى غاية من ان يحيط به قلمي ويقوى عليه بياني في مثل هذا الجو العابس والازمات الخانقة التي تلجئني بين ساعة وساعة الى ان انشد مع الشاعر القروي قوله :

واحيرة العاقل من « داهر » قضى وامضى بشقا العاقل
يعمل ما لو غيره عامـــل لقامت الدنيا على العامـــل
كم صرعة للحق قد زلزلت رأيي في الحق وفي الباطل

أبليس يا مسكين مت غيرة ؟ فالصلب حظ البشر الكامل!
ما كانت الآلام مذ قدرت الا نصيب الرجل الفاضـل
فلنحمد الله على نعمـة خصت بنا من فضله الشامل

مصح ... في ٢٩ — ٩ — ١٩٤٦

٣ - اخي ...

انه لقد جرى حكم القدر بما كنت أخشاه وأتوقعه ، وفاضت روح حسن وسكتت نأمته ، وليس من العسير على من اتاحت له الحياة ان يرى كيف يحتضر الطاووس وان يبصر كيف يذوي الزهر ، وان يتصور كيف تتلاشى النفحات العطرية في ضبـاب الفجر ، ان يتمثل معي هذا الوسيم الشفاف وهو يتجرع غصص الموت ويتلاشى شيئاً فشيئاً ثم يقضي وعلى شفتيه سمة المتهلل الباسم وعلى مقلتيه وداعة المطمئن الحالم ، وعلى قسماته وضاءة المغامـر الظافر ، ليعرف اي وقع لهذه الفاجعة واي أثر لهذا النبأ عـلى احساس من ادركه في عنفوان بؤسه وألمه ، وعلى وجدان مـن لازمه في اشد ايامه بلاء ومحنة ، وعلى عواطف من اكبر نبل شعوره ، واعجب بأنفة طبعه وآمن بتسامي روحه على ما كابد من جور الداء ، وعنت الفقر ، ولؤم المجتمع !

يا يومه لم تدع حسناً ولا ادباً الا حكمت به للحد والكفن
لله مقلته والموت يكسرهـا كأن اجفانها سكرى من الوسن

يرد انفاسه كرها وتعطفه يد المنية عطف الريح للغصن
ياهول ما ابصرت عيني وماسمعت اذني فلا ابصرت عيني ولا اذني
لم يبق من بدني جزء علمت به الا وقد حله جزء من الحزن(١)

على انني لم اضطرب له عند موته اضطرابي له وقد جدّوا به الرحيل وخفقت عذبات نعشه في الافق البعيد كأجنحه الملائكة المحلقين بروحه الطاهر ، ذلك باني كنت — وانا يائس من شفائه — اتألم لما يلاقيه من عناء وكرب . واتمنى له الراحة والخلاص من هذه الحياة المريره التاعسة التي ترهقه بانواع العذاب وترهق كل من يجزع له ويحنو عليه ، ولكنني بعد ان فرغت من تمريضه وتشييع جثمانه بآخر نظر واوفر دمع ، ولم يبق عندي من آثاره غير صور مجردة ينأى بها الخيال ويضطرب لها الفؤاد .. طغى الحزن على كياني وغشيني من الهم ما جعل ايامي كئيبة عابسة اتخطى ساعاتها ودقائقها على مضض من الحياة ، ووحشة من الناس وجزع من كل شيء يذكرني به ويشرف بي على دنيا البؤس والألم والقنوط التي لا ينفك صداها يرن في مسمعي وصورها القاتمة تتوالى على مخيلتي كلما صادفت واحداً من هؤلاء الذين كانوا يمتون اليه بصداقة او عداوة او جوار ، ويقصّون من أخباره واسرار نفسه كل ما يثير العطف ويذكي اللوعة ويضاعف الاكبار ، وكلما تعرضت لهذه الامكنة التي كان

(١) من شعر أبي تمام

يجوب مداها الرحب بنظراته العميقة ، ويملأ فضاءها الواسع باحلامه البعيدة ، ويلهب سفوحها المخضلة بتأوهاته المتأججة ، وكلما طالعت مأساة من هذه المآسي التي تغيب في آفاقها النفس عن كل ما في الحياة من راحة وطمأنينة ورجاء ولا تأوب الا بغصتها وحزازتها من كل مسرح للأنس والسرور وكل مظهر للنعمة والعافية حرم منه أمثال هذا الشقي العاثر الجد ، وفاض — بغير جهد — على من لا يستحقه من لئام الناس وطغاتهم .

. . .

ولعل اشجى ما يمض النفس من ذكراه الاليمة ، هو ضياع ملكاته الفذة في مهاوي الحرمان والاهمال والفواجع التي اجتاحت قواه واحاطت بنشأته من البيت الى المدرسة ، الى المصنع ، الى المصح الى القبر ، .. ثم هوان خطبه على .. الناس كأن لم يكن غير وهم باطل او خيال زائل ؟!

فمن مظاهر هوانه التي جزعت لها في المصح هذا الاستخفاف بشعوره وعواطفه من الممرضة التي كانت تشرف على تمريضه ومن أولئك الخدم المسخرين لارادتها فقد كانوا جميعاً الا ما ندر — لا يتحاشون من اهمال رغائبه ومطالبه وتمنياته ومن الفتور عما يضطر اليه من اسعاف او علاج او مأكل او مشرب .

وحسبك للعلم بما انتهى اليه من ذلك .. ان تتمثل معي شعر

رأسه ـ لمرور الايام والشهور عليه بدون غسل ـ يلتصق بالجلد او يتناثر خصلا متماسكة الاجزاء خشنة الملمس باهتة اللون تذكرك باهاب الجواد الذي خانه السائس بعد طول السفر وتمادي الجري واضطرام الافق بالعجاج وتشعرك بما يحيق به من قسوة واهمـال وحيف ، وانني لم اجد وسيلة لها أثرها في انعاشه وتخدير اعصابه ـ عندما يشتد عليه الالم مثل ان احك رأسه واسرح شعره حتى اذا استمريت على هذه الحال ارتاح واغفى وهانت عليه اوجاعه .

ثم كانوا لا يتورعون ـ في تصريحهم وتلميحهم ـ من إشعاره بانه ميت عن قريب ! كما انهم بعد وفاته لم يراعوا جلال الموت ولا حرمة الميت ولا شعور من كان يحيطه ، بكل عطف وتقدير ، حين نقلوه من سريره الى النعش ، اذ تقدم اليه اثنان من اجلافهم جذبه الاول من رقبته وجذبه الثاني من رجليه ثم رفعوه بسرعة تقوس لها ظهره وتأرجحت يداه ، واضطرب وضعه ، ثم القوه كما يلقى الاناء الفارغ بدون اكتراث لهذا الموقف الرهيب الذي يسمو بروعته وجلاله عن عبث السفهاء .

ومنها انني عندما زرت النبطية مسقط رأسه ووطنـه الاول لم ار فيمن واجهت ـ وهم كثر ـ من يعرف عن موتـه او حياته شيئاً بل من يشعر بفقده وقد مضى على وفاته اسبوع كامل ، وعندما يممت بيروت ـ مرتع صباه ومثواه الاخير ـ واتصلت بالمقيمين هناك من ابناء منطقة لم اجد الحال عندهم تختلف عـن

الحال في النبطية من حيث الجهل بحقيقة امره والاستهانة بشأنه حتى اشفقت ان يكون بمن عناهم الشاعر بهذا القول :

تمضي المنون بقــوم لا تحسبهم كأنهم من هوان الخطب ما وجدوا

بما يدعو الى التفكير في حكمه ، والى الوقوف عند تعميمه اذ ان فيمن هان خطبهم عند الناس .. مـن كان له من سمو فطرته وسمو همته واتجاهه ما يؤهله لان يكون جاهاً لقومه وثروة لوطنه ، ولكن التوفيق اخطأه والايام حاربته في بيئته ونشأته وفي جميـع وسائله ومقاصده حتى مات بغصته موتة الجندي المجهول في غمرات المحيط فهو ان الخطب في مثل هذا كفداحته — عند شعرائنا — بموت من توصلوا الى الجاه والمال والشهرة الفارغة ببيع الضمير والوجدان والاستخفاف بحقوق الوطن وكرامة الامة ، كل من الحالين لا يعدو ان يكون من ظلم الاقدار الغاشمة وجور التقاليد الزائفة لا مـن عدلها وانصافها :

. . .

ومن ذلك انه ، حين ذهبت اؤدي فروض الذكرى وواجباتهـا في اليوم السابع من وفاته ، واجتزت بهذه الغابة من القبور الرخامية المدلة بزخرفها واناقتها الى ذلك الجانب الخاشع المتواضع تواضع من ثوى به من الغرباء والمساكين ، فما راعني هناك غير هذه الكومة من الرمال قد احاط بها اطار خشبي كتب على جانب منه اسم حسن عواضه : وتاريخ ولادته سنة ١٩٢٥ وتاريخ وفاته سنة ١٩٤٦ و كتب على الجانب الآخر هذان البيتان :

يا زائري لا تنسني — من دعوة لي صالحة
ابسط يديك الى السما — واقرأ لروحي الفاتحة

اذ لم اجد في رسم القبر وسذاجة هيكله ولا فيما يحيط به من هذه الاجداث المقفرة من كل زينة المعطلة من كل زخرف، ما يدل على انه كان في موته اوفر حظاً عند الناس — وأعز شأنا منه في حياته ومرضه، واذ لم ار في هذين البيتين المعلقين على القبر — كوسام الاستحقاق — ما يمثل ذلك الطبع الأبي الذي كان يتحلى به صاحبه، ولا من المعاني السامية ما يبهج نفسه العزوفة عن ممالأة الناس والوقوف منهم هذا الموقف الخانع المستكين:

ومما زاد في ارتياع القلب وذهول النفس ازاء هذا الجدث المهمل، ما تشف عنه هذه الاطلال الموحشة الضارعة التي تحوطه وما تجيش به هذه البقعة الواجمة الكئيبة التي تحضنه، من صور القلوب الدامية والعبقريات المكبوته والآمال المحطمة، وما يردده صمتها وسكونها من صدى الانين الخابي، والاناشيد الخافتة، والزفرات المستعرة التي اجتثها البؤس وطواها الحرمان والجور، في قرارة هذا الصعيد المكتظ بالاحلام والصور المختلفة، والزاخر بالآيات والشواهد المطردة على عبث الايام، وغرور الانسان، ومآل الحياة الى هذا المستراد الحرج! والنهاية القائمة الرهيبة؟

...

واني لا آسف لشيء — عند ذكره — أسفي لان الايام لم تتح له شاعراً متواضعاً يصغي لبلواه ويستوحي ظروفه، ويبكي صباه

الناضر ، وامله اليائس وخلقه المصفى ، ومـا الى هذا من خصائص بارعة غالها الموت وعفى عليها النسيان .

واذا كان لهذا الاسف ما يلطّفه ويهوّنه ، فانما هو هذا الاعتقاد مني او هذا الشعور بان الناس قلما يحتفون وقلما يرثون او يبكون تأسفاً على الموتى او اكباراً لخطبهم وتأثراً بمصابهم ، وانما يصطنعون البكاء ويتكلفونه تزلفاً للأحياء او استغلالا للمناسبات ، وذلك شيء لا يحتاج الى برهان في الاوساط العاملية واللبنانية ففي العـام الماضي توفى شابان من الشباب النبلاء لا يختلفان عـن حسن عواضه في حداثة سنهما . ولا يفضلانه في ذوق او عقل ، ولا يمتازان عنه في خلق او خلق ، ولا كانت الظروف والعوامل التي احاطت بوفاتهما اقسى وامض واشجى من الظروف والعوامل التي احاطت بوفاته ومع هذا كله فقد اهتز الاقليم لوفاتهما وتسابق الشعراء والادباء في رثائهما وتأبينهما ، على جهلهم بحقيقة نفسيهما واتجاهها او بميزاتهما ... بينما تجاهل الكثير من مواطني حسن متى مرض ومتى توفي ؟! وابتعدوا عـن التعرف عليه والنظر الى ما احاط به من ظروف قاسية وما انتهى اليه من نهاية محزنة

فما السر في هذا ؟ غير ان اولئك ماتوا في كنف أعزة اغنياء يهابهم الناس ويرجونهم فيخضعون للتقاليد والاعتبارات الـتي تحسّن لهم المالأة والمجاملة في اصطناع البكاء لاحزانهم وآلامهم وتكلّف الضحك والطرب لافراحهم وتهانيهم من غير ان يبحثوا عن اثر ذلك في قرارة نفوسهم او عن مدى الاخلاص للروح الفنية والارتفاع بالمستوى

الادبي عن الملق والتدجيل ... وقضى هذا غريباً في وطنه مضطهداً بين اهله بعيداً عن كل ما يدعو الانانيين الى استكناه حقيقته ، واستشعار ألمه وبؤسه ، واعتبار هذه المجموعة من خصائصه الذاتية وظروفه القاسية ، ونهايته المؤثرة ، موضوعاً فنياً للرثاء العاطفي الخالص من اثر الصنعة والرياء . قضى ولسان حاله يردد مع محمود ابى الوفاء :

أبي وفي النار مثوى كل والدة ... ووالد انجبا للبؤس امثالي
خلّفتني ووضعت الحبل في عنقي ... تشده كف دهر جد ختال
ما كان ضرك لو من غير صاحبة ... قضيت عمرك شأن الزاهد السالي

مصح ... في ٣٠–١٠– ١٩٤٦

الشعر بين التجديد والتقليد

كتبت على اثر مناظرة بيني وبين احد الادباء المغالين في قيمة الالفاظ وقيمة التراكيب في عالم الشعر الى حد القول بأن الشعر انما هو صياغة وصنعة .

●

كان التقليد للغير وما زال سنة من سنن الحياة الاجتماعية التي لا بد منها ولا محيد عنها « لان الانسان بطبيعته لا يستطيع ان يعيش مستقلا او ان يتزيّا بزي نفسه دائماً وابداً ، بل لا بد له ان يتزيا بزي الآخرين وان يسلك سبيلهم في العيش » ويجري على منوالهم الى حد ما في القول والفعل والعرف والعقيدة والافكار والاذواق ، والا لما اتصل الماضي بالحاضر ولا استقامت الحياة في علومها وفنونها وشرائعها ولغاتها ، او في اي شأن من شؤونها الحية النامية .

ولكنه اذا حسن التقليد او لاق فانما يحسن ويليق بالصغار

والضعفاء ما داموا صغاراً وضعفاء ، اما وقد اشتد ساعدهم ، وتكامل نموهم الروحي والمادي . فلا . وليسوا بكبار واقوياء بل ليسوا بأحياء اذا هم جمدوا على التقليد واقتصروا على المحاكاة ولم يعتدوا بانفسهم ويستقلوا بافكارهم واذواقهم . فيقرزوا وينسخوا ويخلقوا ويكتشفوا ويضربوا الامثلة العليا للحياة كما هو الشأن في كل نفس حية ، وفي كل نابغ عبقري من العلماء والشعراء ...

ولولا استمرار هذا الناموس الطبيعي الخالد وتمكنه في الصميم لجمدت الحياة في اول مرحلة من مراحلها ولم تخط خطوة واحدة الى الامام كما يؤكده الواقع الملموس في الامم الخاملة ، والشعوب البعيدة عن مظان الثقافة وعوامل المدنية والعمران .

واذا كان مطلق التقليد لا يليق بمطلق الكبار والاقوياء ، فهل يليق بالشاعر وبالاديب الذي يطمح لان يُكوّن لنفسه شخصية ادبية خالدة تفرض حياتها والوانها وانغامها فرضاً على التاريخ والأدب ليليق بطموحنا او يتفق مع نزعتنا الى الابداع والتجديد ، هل يليق بنا ان ندين بتلكم العقيدة او نترنم بتلك الكلمة التي كان يترنم بها الأعم الأغلب من شيوخ الشعر وفتيته (الشعر صناعة) تلك الكلمة المجازية التي اسرف الجمهور في تطبيقها ، واغرقوا في تفسيرها إغراقاً حدا بهم الى التسامح بالمعاني والصور الشعرية والى القول باباحة التقليد والمحاكاة او بضرورتها للشعر والشاعر .

●

اجل ، إن للصياغة والصناعة قيمتها ومحلها المرموق من الشعر ، واني بدوري لا أغض من قيمتها ولا انكر ما تسبغه على الشعر من جمال وجلال . بيد اني مهما بالغت في ذلك فلا اتجاوز ان يكون محلها من الشعر محل الجسم من الانسان ، او محل اللون من الزهرة على اي فرض يمكن ان يفرضه المتأولون . وكما انه لا يستطيع احد ان يذهب الى ان الانسان عبارة عن جسم والى ان الزهرة عبارة عن لون فكذلك لا يستطيع احد ان يذهب الى ان الشعر مجرد صياغة وصنعة لا شأن فيه للمعاني والاخيلة والصور بما فيها من سحر وفتون . بل انما الشعر الصحيح الذي يمكننا ان نسميه شعراً هو — في نظري — ما قام على اساس ثابت ونسق بديع من ذلك كله اي بان لا يعدو بحقيقته ان يكون عبارة عن « روح » تتجلى في صوره وأخيلته ومعانيه و « فن » يتجسم في صياغته وصنعته وموسيقاه .

وكما كانت الروح في الانسان هي الاصل وكان الجسم فرعاً عنها فكذلك الامر في الشعر والبيان . فالشعر الذي لا يشف بجملته عن روح الموضوع وروح الشاعر — واستقلاله — لا احسب ان ذا ملكة فنية او ذوق سليم يجرؤ على القول باكتماله او الاعتراف بصحته وسلامته من العلل والامراض .

●

ولو صح ما يقال من ان « المعاني والاخيلة » انما هي من

تراث الشعراء وانها انما تتفاوت وتختلف باختـــلاف اساليب الاداء ومناهج التعبير – كما يلوح من كلام بعض الاساتذة – لمـــا صح اعتبار الشعر وحياً والهاماً ، ولما صح فيه اعتبار الصدق في الشعور والعاطفة او لما كان الشاعر في حاجة الى قوة العاطفة او قوة الخيال او قوة التفكير كحاجته الى قوة الحافظة وبداهة الذاكرة وسلامة الذوق الموسيقي ، ما دامت تلك المعاني والصور من تراث الشعراء ووحي الذوق الذي اختار لهـا تلك الالفاظ والتراكيب ليبرزها ويجلوها بهذا الاسلوب الذي امتاز به الشاعر وتفاوتت معانيـــه ، ولجاز لنا ان نكتفي من الشعر باللفظ المختار والجملة المنسقة والوزن المستقيم والقافيـــة المحكمة ، ولم نحسب حسابا لجمال الصور الشعرية واتساق المعاني وصحتها وبعدها عـــن المحاكاة والتقليد او السخف والابتذال .

ثم لو سلمنا جدلا – مع هؤلاء – بان المعاني والاخيلة والصور الشعرية انما تتمايز وتختلف باختلاف اساليب الاداء ومناهج التعبير ، ولم نذهب الى ان تلك الاساليب وتلك المناهج هي الـــتي تتطور بتطور المعاني وتختلف باختلاف الاخيلة والصور الذهنيـــة ، فكيف يمكننا ان نوفق بين ذلك وبين المتداول المعروف عنـــد البيانيين من الترتيب الطبيعي في الكلام ، وكون اساليب التعبـير تابعـــة لاساليب التفكير ، او كيف يمكننا ان نتوقى الغموض والابهام او التعقيد اللفظي ، وهو – على قولهم – انمـا يكون بترتيب الالفاظ على حسب ترتيب المعاني في الذهن ، لا بترتيب المعاني حسب

ترتيب الالفاظ .

•

ربما التبس على بعض متأدبينا او اشتبهوا بان اللغة العربية والفاظها كلها قديم في قديم ما خلا بعض الالفاظ الاعجمية الدخيلة التي لم يقرر علماء اللغة استعمالها وكذلك الشأن في الوضع ، فان هذه الالفاظ المتفق على صحتها الى الآن لم توضع لمعان جديدة غير المعاني التي وضعت لها من قبل الهجرة ومن بعدها . وما دام الشاعر ليس له سوى هذه اللغة ، وهذه الالفاظ وما دامت الالفاظ ليس لها سوى تلك المعاني التي استُعملت منذ مئات السنين فمن اين للشاعر ان يستقل او يتجدد في شعره وليس له من حرية التصرف ما يبيح له ان يخالف اللغة او يخالف الوضع او يخالف الاصطلاح ؟

أجل ، ولكنهم لو تدبروا ولاحظوا ان ليس المراد من تجديد الشاعر واستقلاله ان يخلق لنا لغة او وضعاً او اصطلاحاً ، وانما اقصى ما يراد منه ان ينشيء لموضوعه صورة شعرية عامة تنعكس فيها جميع خواصه واسراره ومشخصاته . كما تنعكس الاشعة الوهاجة في الماء النمير الصافي ، معتمداً في ذلك على تأثراته الخاصة ، وخياله الحر الطليق ، وفكره المجرد ، وذوقه المستقل لتتمثل بها

ظروفه وتميز شخصيته واضحة جلية ، صورة لا تتسق بمجموعها له او لامثاله من الشعراء بعد ذلك الموقف الخاص الذي تجلت به نفسه وانطلقت في تكوين تلك القطعة التي تمثلت وتكاملت بها هذه الصورة وان كانت هذه الصورة بأجزائها منحلة متفرقة قد تتفق وتتداخل في مواضيع وصور شعرية متعددة ثم لا ينافي ذلك استقلال المجموع والكل منها ، كما قد تتداخل المسألة العلمية الواحدة في علوم متعددة ولا يقدح ذلك باستقلال تلك العلوم وانفصال بعضها عن بعض — وهذه او تلك الصورة التي ينشئها الشاعر بخياله على حسب الظروف والاحوال والمواضيع لا يشار اليها او يعبّر عنها بالمفردات اللغوية . وانما يشار اليها ويعبر عنها بمجموع صيغة البيت والقصيدة لكونها باصطلاح البيانيين تكاد ان تكون عبارة عن تلك المعاني الثواني التي يجلوها الشاعر ويبرزها عن طريق المجاز والاستعارة والكناية وما اشبه ذلك لا عن طريق الوضع والتعيين .

ثم ان يوجد ايضاً من تأليف الالفاظ وتنسيقها على شكل خاص نغماً موسيقياً لا يتسق له او لغيره من الشعراء في غير هذه القطعة وهذا التنسيق الخاص الذي نسق به جمله وتراكيبه التي تكونت منها تلك القطعة الشعرية . فانهم لو تدبروا ولاحظوا هذا المراد من التجديد والاستقلال لأمنوا ورطة الشك والريب والاشتباه واطمأنوا الى فنهم وكفاءتهم ان كان هنالك من فن

وكفاءة !

●

ولعل هذين الغرضين من الشعر اوضح واصدق ما ذهب اليه الجاحظ في قوله : « انما الشعر صياغة وضرب من التصوير » فانه لم يقصد طبعاً من التصوير ذاك الذي يلفقه الشاعر وينتحله من تصوير غيره وتأليفه ، وانما قصد ما يخلقه الشاعر بخياله وفكره من الصور الشعرية التي يستوحيها من موضوعه وظروف حياته وبيئته . وكذلك القصد من الصياغة انما هو هذا النغم الخاص الذي ينشأ مع اسلوب القصيدة بما فيه من جمل وتراكيب والفاظ تتفاوت قوة وضعفاً وشدة وليناً ، وقلقاً وانسجاماً على حسب الاذواق والملكات الفنية . وما كان ذلك بدعاً في القول وافتئاتا على الشعر ، فهذا « ارسطو » على بعد عهده وتقدم عصره يقول : الابتكار اساس الشعر . فالشعر عنده ــ كما يظهر ــ صورة مخترعة يخلقها الشاعر بقوة خياله وفكره . والوزن والقافية ربما كانا شيئاً اضافياً يلحق بالصورة حتى يتم خلقها وتكوينها في نفس الشاعر .

ثم ان في اجتماع الشعراء واتحاد القصائد المتعددة في موضوع واحد وفكرة خاصة مع اختلاف مناحي بيانهم وتنوع صورهم الشعرية لذلك الموضوع الواحد والفكرة المحددة في كل قصيدة من

تلك القصائد ــ لحجة مبررة ، وبرهانا قاطعاً على امكان مـــا نزعمه ووقوع ما نذهب اليه من حربة في الافـكار ، واستقلال في الاخيلة والصور وهــذه مختارات الجواهري والبدوي وابي القـاسم الشابي والقروي وايليا ابي ماضي على حداثة عهدها تشهد على مــا نقوله صادقين وندّعيه واثقين ...

هل تتفاوت اساليب البيان

بتفاوت الموضوعات والمناسبات ؟؟

.. اذا كان من شروط البلاغة في الكلام ان يكون لكل مناسبة ولكل طبقة من الناس مقال يختلف بصوره ومعانيه واساليبه باختلاف الافراد والجماعات في المكانة الأدبية والفكرية وباختلاف نسبتهم الاجتماعية من مكان المتكلم ، ويتفاوت ـ بعسره وسهولته ودقته وبساطته ـ بتفاوت اذواق المخاطبين ومعدل ثقافتهم وحظهم من الاضطلاع بدرس اللغة وفنون الادب واساليبه

كان على الاديب الحق الذي تثقف بثقافة عصره ومجتمعه ومارس أساليب البيان واحاط بخصائص المفردات اللغوية علما واختباراً ، ان يورد بيانه على ما يقتضيه الموضوع والغرض والمقام وان يكيّف كلامه على ما يناسب ذوق المخاطبين وثقافتهم وعقليتهم من شدة ولين وانطلاق

وتوسل او توسم واحتياط لمختار الالفاظ والمعاني ، وإلا كان ضعيفاً في ذوقه وفنه قاصراً في تفكيره ومنطقه عن مدى عقلية المخاطبين وعما تقتضيه مراعاة الموضوع والغرض والمقام من انواع المنطق والخيال والاساليب البيانية .

●

ثم لا يخفى ان الاساليب البيانية تختلف بمفرداتها وتراكيبها انسا وغرابة او صلابة ولينا ، او شدة وسهولة ، باختلاف الموضوعات ولو انها كانت لشاعر واحد وفي قصيدة واحدة ، ذلك لان الموضوعات تتفاوت في عصر دون عصر اهمالاً وتداولا على حسب الحاجة اليها والاستغناء عنها أو بحسب الميل لها والنفور منها ، وتداولها يستلزم شيوع معانيها في الاذهان ومرونة الفاظها على اللسان وخفتها على الطبع كما ان اهمالها يؤدي إلى عكس ذلك كله

فالموضوعات التي كان يألفها الشاعر الجاهلي ويضطر الى تناولها في شعره — من خيل وابل واوابد وبيد — ثم اهملت على توالي العصور وتطورات الحياة حتى اصبحت غريبة عن الذهن بمعانيها ثقيلة على السمع بألفاظها نافرة عن اذواقنا بموسيقاها ننقبض منها ونشك بصدق من يستعملها ونتهم ذوقه وادبه ، هذه الموضوعات لو تناولها شاعر عصري بذوقه متطرف في رقته وفي تجدده لا بد وان

يتسم بيانه بطابع خاص من الغرابة والجزالة والغموض لبعد المعاني التي تشرح خصائصها عن اذهاننا وغرابة الفاظها عن سمعنا وثقلها على ألسنتنا ، وعلى العكس من ذلك الموضوعات التي بقيت متداولة في جميع العصور كالمدح والرثاء والغزل وما يتصل بالنفس والحياة العامة فانه لو فرض ان تناولها اديب نشأ محافظا على الاساليب القديمة متعمقا في درس شواذ اللغة متأثراً باستظهار غريبها ، لايتسنى له ان يشذ بأسلوبه ويغرب ببيانه عن مقتضى السهولة واللين والوضوح لقرب هذه الموضوعات من النفوس وشيوع معانيها في الاذهان وتداول الفاظها ومرونتها على الالسنة

وعلى هذا يمكننا ان نزعم ان من الموضوعات ما يضطر الشاعر — مهما كان نوع مزاجه وثقافته وعصره — الى ان يكون على شعره طابع خاص من الجزالة والغرابة والغموض ، كما يكون في كل شعر وصفت به الاوابد والنوق والصيد وما اشبه ذلك من الموضوعات التي اهملها المحدثون والمولدون وأدى اهمالها الى غرابة الفاظها ومعانيها عن الذهن ثم الى ثقلها على الطبع واللسان

وان من الموضوعات ما يضطره ايضا لان يكون معتدل الاسلوب معتدل الالفاظ معتدل المعاني كما تجده في شعر المدح والرثاء والحكم وما الى ذلك لان هذه المقامات بطبيعتها واغراضها لا تلتئم مع التسامح والاسترسال ولا تتفق كذلك مع التقعر والاغراب

وان منها ما يقتضي الشاعر أن يكون مسترسلا في بيانه سهل الالفاظ واضح المعاني الى اقصى حد ممكن كما ترى في الهجاء والمجون وتصوير اللهو والغزل الاباحي ، وان تفاوتت اللهجات نوعا ما بتفاوت العصور والثقافات والامزجة لان هذه الاحوال في حد ذاتها فضلا عن شيوعها في كل عصر وقربها من كل نفس لا تتسق الاتساق الطبيعي التام الا مع التجرد من كل اعتبار والاسترسال بكل معانيه مع خصائص الجمل والالفاظ السهلة المألوفة لدى كل طبقة .

●

ولعلك اذا قابلت بين غزل ابي نواس وطردياته مع انه في كليهما كان لاهيا او بين هجائه ومدحه مع انه في كليهما كان جاداً او عابثاً ، او قارنت بين وصف الناقة لطرفة بن العبد وبين تصويره للهوه وميوله وتحدثه عن نفسه مع ان ذلك كله اجتمع في قصيدة واحدة ، ترى من هذا ومن الكثير من امثاله في الشعر القديم والحديث ما يقرب وجهة نظري في ان الاساليب البيانية تختلف باختلاف الموضوعات كما تختلف باختلاف الاشخاص والامزجة ، واليك فقابل بين اسلوب ابي نواس حيث يهجو :

قل للرقاشي اذا جئته .. لو مت يا احمق لم اهجكا
لانني اكرم عوضي ولا .. اقرنه يوما الى عرضكا

وبين اسلوبه حيث يمدح

واذا المطي بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام
قربننا من خير من وطيء الحصى فلها علينا حرمة وذمام
ملك اذا اعتسر الامور مضى به رأي يفل السيف وهو حسام
داوى به الله القلوب من العمى حتى افقن وما بهن سقام

او بين اسلوبه حيث يتغزل بمثل قوله :

وقصرية أبصرتها فهويتها
هوى عروة العذري والعاشق النهدي

فلما تمادى هجرها قلت واصلي فقالت بهذا الوجه ترجو الهوى عندي
فقلت لها لو كان في السوق أوجه تباع بنقد حاضر وسوى نقد
لغيرت وجهي واشتريت مكانه لعلك ان تهوي وصالي من بعد
وان كنت ذا قبح فاني شاعر فقالت : ولو اصبحت نابغة جعدي

واسلوبه حيث يصف الصيد والكلاب :

لما تبدى الصبح من حجابه كطلعة الاشمط من جلبابه
وانعدل الليل الى مآبه كالحبشي افتر عن انيابه
هجنا بكلب طالما هجنا به ينتسف المقود من كلابه
كأن متنيه لدى انسلابه متنا شجاع لج في انسيابه
كأنما الاظفور في قنابه موسى صناع رد في نصابه
تراه في الحضر اذا هاها به يكاد ان يخرج من اهابه

شدّاً ببطن القاع من ألهى بـه يترك وجه الارض في إلهابـه
كأن نشوان توكلنا بـه يعفو على ما جر من ثيابـه
إلا الذي آثر من اهدابـه ترى رسوم الوحش تحتوي به

او قارن بين اسلوب طرفة حيث يصف الناقة ويصور اوضاعها خير تصوير :

وإني لامضي الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدي
أمون كألواح الاران نصأتها على لاحب كأنه ظهر بُرْجد
جمالية وجناء تردي كأنها سفنجة تبري لازعر أربد
تُباري عتاقا ناجيات واتبعت وظيفا وظيفا فوق مور معبد
تربعت القفين في الشول ترتعي حدائق مولّي الاسرة أغيد
تريع الى صوت المهيب وتتقي بذي خُصل روعات اكلف ملبد
كأن جناحي مضرحيٍ تكنفا حفا فيه شكا في العسيب بمسرد

وبين اسلوبه حين يفرغ لنفسه ويتحدث عنها بمثل قوله :

وان يلتقي الحي الجميع تلاقني الى ذروة البيت الشريف المصمد
نداماي بيضٌ كالنجوم وقينة تروح الينا بين بُرد ومجسد
رحيب قطاب الجيب منها رفيقةٌ بجس الندامى بضة المتجرد
اذا نحن قلنا اسمعينا انبرت لنا على رسلها مطروقة لم تشدد
وما زال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وانفاقي طريفي ومُتلدي
الى ان تحامتني العشيرة كلها وافردت افراد البعير المعبد

رأيت بني غبراء لا ينكرونني ولا اهل هذاك الطراف الممدد
الا أيهذا الزاجري احضر الوغى وان اشهد اللذات هل انت مخلدي
فان كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني ابادرها بما ملكت يدي

الا يقنعك هذا الاختلاف الجلي بين سهولة ابي نواس ولينه في الهجاء والغزل وبين رصانته واغرابه في المدح والطرد . أو هذا التفاوت بين متانة طرفة واغرابه في وصف الناقة من معلقته وبين قوته ووضوحه ويسره في التحدث عن نفسه وعن حياته اللاهية بما يبرر حكمي او يؤكد زعمي ذاك ؟

لهذا أرى ان من التسرع والخطل ان نحكم على كل شاعر وعلى كل أديب من شعرائنا وادبائنا المتقدمين بأسلوب معين او ان نقيده بطابع خاص من الرصانة والسهولة ومن الغموض والوضوح أو الترسم والترسل ونجعل له من ذلك مقياساً لكذبه وتكلفه او صدقه واسترساله مع الطبع ولا سيما اذا كان الشاعر اجتماعيا كأبي نواس يتسع بثقافته وعقله وبمرونة طبعه ولسانه لسائر الطبقات والحالات والظروف ولا يضيق قلبه وبيانه بما توحيه ضروريات الحياة الاجتماعية وتفاوت المناسبات من لهجة واسلوب بما ويلهمه تطور الحالات من معاني واخيلة فان الشاعر والاديب بما فطر عليه من دقة الملاحظة ولطف الاحساس والذوق لكا لنسيم يتأثر بكل ما يمر به ويتطور مع الحياة بجدها ولهوها وحزنها وفرحها وشدتها ورخائها وقد يكون من ضعف الشاعرية فيه ان يلتزم بناحيه من

نواحي الحياة او يجمد على مذهب من مذاهبها ولا يتأثر بكل ما يلابسه من صورها وحالاتها واساليبها فيكون في البادية بدويا يتأثر بما يتأثر به البدو من الفاظ ومعانٍ واوضاع وفي الحضر حضريا يهيم بكل ما يهيم به الحضريون وبين العلماء عالما يتكلم بلغة العلماء ويتأدب بآدابهم وبين العامة عاميا يعبث بما يعبثون به ولا يترفع بلغته وعواطفه عن لغتهم وعواطفهم

كيف يجب ان نفسر موقف
الشعر العربي من فن القصص والملاحم

صدى جلسة ادبية تنكر فيها بعض المتطرفين للشعر العربي وللعبقرية العربية محتجاً بخلو الشعر العربي من القصص والملاحم التي حفل بها ادب الاعاجم :

●

١

يشيع على ألسنة الرواة والمؤرخين القول : بان الشعر العربي شعر غنائي محض لا يُعنى فيه الشاعر الا بتصوير نفسه ، وان القصصي والتمثيلي لا اثر لهما فيه : وهذا القول – مما يوشك ان يجمع عليه الرواة والمؤرخون – ليس فيه بحد ذاته ما يحفظ نفوس الباحثين والمفكرين من العرب او ينال عبقرية شعرائهم وكتابهم ، بيد ان المتطرفين في شكلهم وايمانهم قد عبثوا به وتوسعوا في تأويله

حتى اصبح وسيلة لانتقاص الفطرة العربية يتوسل بها المتحاملون على العرب وآدابهم للتلبيس على الناشئة وحملها على الاستخفاف بتراثها الادبي والقومي والشك بسمو طبيعتها وكفاءتها : وهي وسيلة ولا احسبها تقوم الا على تجاهل الغاية والغرض من الشعر القصصي او على الجهل بان هذه الغاية وهذا الغرض يمكن تأديتهما بغير هذه اللهجة وغير هذا الاسلوب عندما يخلص الشاعر لأثر الحياة ولأثر البيئة في توجيه ملكاته ومواهبه الفنية ، وعندما يترفع بفطرته عن تكلف المحاكاة والالتزام بما التزم به البعيدون عن مؤثرات حياته وبيئته .

لذلك رأيت من الأنصاف للحق ان ابدي بعض ما يجول في النفس ، وان اصارح اولئك المترسمين وهؤلاء المتحاملين بانه اذا كان الشعر القصصي في جملته عبارة عن نظم الوقائع الحربية والمفاخر القومية بشكل قصة ، فما عسى ان تكون الاغراض المهمة منه غير بعث الحماسة القومية وتدوين المفاخر الشعبية ؟

وعلى تقدير ان تكون هذه هي الاغراض المهمة للملاحم والقصص ، فهل يصح او يجوز ان يكون الشعر العربي قد قصر في عصوره الخالية كل هذا التقصير عن تأدية ما تؤديه الملاحم والقصص من الاغراض ؟ وهل كان في ابتعاد شعراء العرب عن تكلف المحاكاة والتقليد واستقلال كل منهم في اختيار الطريق الذي يلائم ذوقه في الاداء والتعبير وفي استلهام الجو الذي يحيط به ويلابسه ، وفي تصوير الاحساس والشعور الذي يخالج نفسه ويتصل بحياته الشخصية والقبلية ،

هل كان في هذا كله ما يغض من مفاخرهم الاجتماعية او يزري بملكاتهم الفنية ومواهبهم الروحية او يصرف جمهرتهم عن التحمس لمجد العرب وعن الايمان بعظمة ماضيهم وسمو فطرتهم وعبقريتهم او عن تقديس مبادئهم ومثلهم العليا ؟

واذن فأين نحن عما يتجلى في هذا الفيض من شعر الحماسة والمفاخرة والمنافرة ، والمدح ، والرثاء ، والحكم ، والوصف ، والغزل ، وما الى ذلك من ابواب وفنون تتسلسل متشعبة كالينابيع الفياضة في قصائد الجاهليين ، والمخضرمين ، والمولدين ، أما في هذه الانواع الادبية وفيما يقاربها من شعر العرب ما يمثل سمو الفطرة العربية ويكيف خصائص عبقريتهم في كل ناحية من نواحي الفكر والشعور ، ويجعل منه اصدق مثل للفخر والحماسة وتصوير مجاري الحياة واقوى عامل على إلهاب الغيرة والحمية وصقل الذوق والعقل ، ثم ما عسى ان يؤثره الشعر القصصي او يفعله في النفس اذا هو تجرد من مثل هذه الاناشيد الحماسية والقطع الوصفية والصور الوجدانية والخواطر الحكمية او خلا في جملته من مثل هذه الاجواء والمواقف . وهل يبقى فيه من مظاهر الفن ودواعي التعجب غير التحدث بما يشبه البلاغات الرسمية والنصوص التاريخية مما لا يؤثر على النفس ـ حين يؤثر ـ الا بغرابة حوادثه ومفاجآته وفظاعة نتائجه .

٢

ثم اذا أمعنا النظر الى ظروف حياتهم الرتيبة وطبيعة بيئتهم

الجافة المتسقة الفصول والمناظر والى اوضاع مجتمعهم المفككة المضطربة ، والى عواطفهم الدينية الضعيفـة المحدودة ، وانهم في ايام جاهليتهم ووثنيتهم لم يكن لهم من اصنام عامة . وآلهة متنوعة ، او من دول وملوك بالمعنى الصحيح لهـذه الكلمة تقضي عليهم بان يفترضوا لهـا الخوارق والاساطير وان يضعوا حولهـا الحكايات والقصص بهـذه الكثرة وهذه الصورة التي بالغ فيها اليونانيون في عنفوان سلطانهم ووثنيتهم وفي إبان نهضتهم الادبية والفنية ، عرفنا من هذا كله ان ذلك النقص والخلل لم يكن في طبيعـة اللغة العربيـة ولا في طبيعة العرب : فان اللغة التي اتسعت لترجمة آداب الفرس وعلوم اليونان وفلسفة العـالم القديم ولكل تطور في الحيـاة ايام نهضة العرب وتمادي سلطانهم السياسي والادبي مـا كان يمكن ان تضيق بالملاحم والقصص لو تصدى لها ارباب القرائح الفياضة والطبائع الخصبـة ، منهم او لو ان البيئة والظروف عملت على توجيه ملكاتهم الفنية نحو هذا النوع من الشعر .

٣

وهل يمكن ان تكون اللغة اليونانية يوم نظمت الاليـاذة او اللغة الفارسية يوم نظمت الشاه نامة أمرن اداة واغزر مادة واوسع ثروة في الالفاظ والتراكيب والاشتقاقات من اللغة العربية في زاهر عصورها وايامها ؟ وعلى اي اساس يتشبث المتشيئون بمثل هذا الزعم ؟ وهذا معرب الالياذة ــ وهو من علماء اللغة العربية وادبائها المتضلعين

بدرس اللغات والآداب الاجنبية ـ يقول في صفحة ١٩٢ ـ ١٩٣ ـ ١٩٥ من مقدمتها : « واللغة العربية شعرية بطبيعتها لتفرع مفرداتها وتنوع اشتقاقاتها القياسية على اسلوب لا يُرى له مثيل في اللغات الآرية ، والقوافي مزدحمة فيها ازدحاماً يسهل النظم وهي ـ بخلاف ما يزعم بعض الاعاجم ـ جزلة التركيب محكمة الانسجام ، وفيها من طرق الحذف والتقديم والتأخير ما ينفسح معه المجال لصوغ العبارات على قوالب شتى » .

« ولقد بدا لي اثناء التعريب من ثروة العربية في الالفاظ الوضعية القديمة ما اغناني عن الانحراف بالمعنى على ما اضطر اليه بعض نقلة الافرنج على ما تقدم في الفصل السابق ، ورأيت من المماثلة بين اللغتين في دقة الوضع ما يدهش الناظر والناثر ، وينبئك ذلك ان العرب لم يغفلوا وضع شيء من الالفاظ الدالة على جميع مطالعاتهم ومحسوساتهم حتى اصبحت مفردات اللغة في زمانهم رابية على حاجة التعبير » .

٤

ثم اذا صح ما يزعمه ابناء المذهب الولفي ، من ان الملاحم اليونانية كانت في الاصل قصائد وأساطير متفرقة عن الآلهة والابطال والحروب ، ثم جمعت والفت ملاحم ، او صح زعمهم بان هوميروس ليس بشخصية تاريخية وانما هو شخصية خرافية قد جُمع باسمه هذا النوع من الشعر كما قد جمعت النوادر باسم جحا ، وان الياذته

واوذيسيته هما معظم شعر جاهلية اليونان صح لنـا ان نزعم ـ مع كل هذه الاعتبارات ـ بأنه كان في الشعر الجاهلي من تصوير الوقائع الحربية والمفاخر القبلية والحياة الاقليمية ما لو حفظ وجمع واحكم ترتيبه على هذا النمط اليوناني لزاد على الالياذة والاوذيسة والشاه نامة وغيرها من الملاحم القديمة والحديثة ومثّل حياة العرب الاقليمية والقبلية والفردية اكثر مما تمثله هذه الملاحم من حيـاة الامم التي نشأت فيها .

فانه اذا رجعنا الى التاريخ والمؤرخين وجدنا الرأي العام منهم يجمع على ان العرب في جاهليتهم « كانوا اذا نبغ في القبيلة من قبائلهم شاعر أقيمت له الولائم والافراح ابتهاجاً وتباشراً بنبوغه ، وأتت القبائل الاخرى مجاملة مهنئة ، كل ذلك اعتقاداً بأنه حماية لاعراضهم ، وذب عن احسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بتاريخهم » .

وعلى هذا فلو فرضنا انه كان لكل قبيلة شاعر في كل جيل ـ لا أكثر ولا اقل ـ يذب عنها ويشيد بذكرها ويخلد أيامهـا ومواقفها لوجب ان يكون لكل قبيلة من قبائلهم او لكل جيل من اجيالهم الياذة كالياذة هوميروس تصور وقائعهم الحربية وتسجل مفاخرهم القبلية وتقص أخبارهم واساطيرهم ، واذا لم يصلنا مـن ذلك ما يؤكد هذا الزعم ويوضحه ، فمما لا شك فيه « ان ما وصل الينا من الشعر الجاهلي انما هو قطرة من بحر الأهمال التدوين

عند العرب الى مدة متأخرة عن أيام النهضة الجاهلية في الشعر ومموت اكثر الرواة بالحروب والاحداث الاسلامية بدون ان يلقنوا ما لديهم من محفوظات الى من تلاهم » ثم اختلاف من بقي منهم في الاتجاه والغرض ، ثم تحكم الولاة والحكام بأهوائهم وعمل كل مستبد منهم على طمس ما يخالف سياسته او عقائده او نزعاته العصبية من الشعر ، اضف الى ذلك ان الحماسة للتعاليم الاسلامية كانت تدفع بالمتحرجين من الرواة الى ان يهملوا من الشعر ما شاعت فيه التقاليد الجاهلية والعقائد الوثنية المناقضة لروح الاسلام وقواعده ، ذلك وامثاله مما يؤيد قول عمرو بن العلاء « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » ثم مع ذلك ومع انه لم يدون للعرب في جاهليتهم تاريخ صريح بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة نرى « ان ما بقي لنا من أخبارهم وآدابهم وعلومهم واخلاقهم وتقاليدهم ، انما هو قبسة من اشعارهم اثبتها النقل ووسعها الاستنباط ، ولذا قالوا : الشعر ديوان العرب . فمن شعرهم استخرج الناس أخبار أيامهم وحروبهم ومنه الف السجستاني كتاب (المعمرين) ومنه استخرجوا أحوال الشعراء المتقدمين والفوا الكتب كابن قتيبة وغيره ، ومن شعرهم استخرجوا وصف البلاد والجبال والاودية والاوهاد ، ومنه الفوا ما الفوه في الحيوان والنبات ككتاب الحيوان للجاحظ والنبات لابي حنيفة الدينوري ومن أشعارهم استطلعوا صور أديانهم في أيام جاهليتهم ، وقس على ذلك ما عرفوه من عاداتهم وآدابهم

في الضيافة والفروسية والاعراس والمآتم وغيرها »

كل هذا مما يدلنا على ان الشعر الجاهلي ـ على قلة ما استقر منه بين أيدينا ـ قد عبر عن حياتهم اصدق تعبير وادى من الاغراض المتنوعة ما لا يقل عما ادته الملاحم في الامم التي تسنى لها ان تحتفظ بتراثها الادبي وتكون منه ملاحم وقصص على الشكل المعروف في الالياذة والشاه نامة

٥

ثم لو تنازلنا عن هذا كله وسلمنا بأن ملكات العرب التي نظمت فيما بعد اكثر العلوم الاسلامية والاصول الدينية والاخلاقية والادبية شعراً كانت قاصرة عن نظم الملاحم والقصص فما الذي كان يعوقهم بعد الاسلام وعند تمادي سلطانهم وحضارتهم ان يرشحوا لهذا العمل فردا او جماعة من نوابغ الآريين المستعربين كما قد رشحوا امثالهم من العلماء والادباء للتأليف والترجمة من الكتب اليونانية والفارسية والهندية ، لوان هذا النوع من الادب القائم على الاساطير والخرافات كان ملائماً لمزاجهم وذوقهم الفني او موافقاً لتطورهم ونضوجهم العقلي ، او كان له هذه الاهمية في نظرهم او هذه الفعالية المؤثرة التي دفعتهم الى التأليف في شتى الفنون والى نقل الفلسفة والعلوم والآداب الاجتماعية والاخلاقية عن كل لغة

على اني ازعم ولعلي اجزم ان العرب بعد الاسلام وفي أوج

نهضتهم ومدنيتهم ونضوجهم الفكري انما صرفهم عن نظم القصص والملاحم واوقفهم عن إعطاء هذا النوع من الادب حقه ، هو نظرهم الى الحياة نظرة إنسانية سامية حقرت في عيونهم الفوارق الجنسية والعنعنات الاقليمية وحملتهم - بسورتها الروحية - على ان يضحوا بتلك الفوارق في سبيل توحيد الامم وترويض جوامحها على احترام التعاليم السامية والمبادىء الرفيعة التي تنظم القبائل والشعوب وتربطها برابط من الحب والعطف والايمان بأنه (لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي الا بالتقوى ، وان أكرمكم عند الله اتقاكم ، وانما المؤمنون اخوة) لا انهم توقفوا عن نظم الملاحم والقصص تورعاً وخوفاً من التأثر بنماذجها اليونانية والرومانية وبما يشيع فيها وفي اساطير الغابرين من عقائد وتقاليد وثنية ، فان ايمان العرب يوم ذلك بتعاليمهم ومبادئهم الجديدة كان اسمى واقوى من ان يخافوا عليه مثل هذه الاساطير والخرافات وكذلك أزعم انهم لم يحجموا عن ترجمة القصص اليونانية اغتراراً بما أوحته لهم طبيعة البيئة والحياة من آداب رفيعة وأساليب بارعة وصور حية ، وامثال حكيمة ، وأقاصيص طريفة ، فان هذا الاغترار لو صح حدوثه وتأثيره لمنعهم من ترجمة الآداب الفارسية والحكمة الهندية مما لاءم اذواقهم وارضى مطامحهم وحاجتهم الى الحياة الفكرية والفنية ، ولكن نزعتهم تلك هي التي قصرت جهودهم في النقل والانشاء على كل ما كان عالمياً في روحه وانسانياً في حقيقته وأغراضه كالفلسفة والعلوم والآداب الخالصة من شوائب

النعرات الجنسية والفوارق الاقليمية ، وطفرت بهم عن مسايره العواطف القومية المتطرفة ومزاولة القصص والملاحم في إبان نهضتهم وقوتهم واستعدادهم لمزاولة كل نوع من انواع الحياة الفكرية والادبية ، ولنا في رسالة الانسان والحيوان في محكمة الجن ، وقصة حي بن يقظان وما فيها من تسام في النزعة والغرض ، ما يبرر صحة هذا الزعم ويسدده .

٦

على انه لو رجعنا لتاريخ الملاحم والقصص القومية وتأملنا في البواعث الملحة على تأليفها وإنشائها وخاصة في العصور الوسطى ، لرأينا جلّها او كلها كان ؟ يرتكز على الخوف والنقمة من مزاحمة اللغات والآداب والسلطات الأجنبية للغة البلاد ولسلطان الأمة واستقلالها السياسي والادبي كما هو واقع الحال في الامة الفارسية يوم همت بتأليف الشاهنامة وعملت على إنشائها ، فان جل همها من ذلك انما كان يتجه لاحياء النعرة القومية وجمع أهواء الشعب على ما يقصونه من أمجاد أمتهم ويصورونه من معجزات أبطالهم ويلونونه من حوادث ايامهم ووقائعهم ، بما يلهب حماستهم ويوحد شملهم ويضاعف جهودهم في صد نفوذ العرب ذاك النفوذ الذي قضى على استقلالهم السياسي كما كان يتجه همهم أيضاً لمقاومة اللغة العربية وآدابها التي طغت على نفوس الفرس وطبعتهم بطابعها حتى أصبحوا صدىً لها يقلدونها ويعبرون بها عن افكارهم وعواطفهم .

ولرأينا ان العرب في جاهليتهم وفي إسلامهم كانوا بعيدين عن مثل هذه البواعث والعوامل المؤثرة ، اما في الجاهلية فللاعتبارات التي فصلناها ثم لانه قد كان في نظامهم الاجتماعي وتفرقهم قبائل وبطوناً وافخاذاً متنازعين متنافرين ما يصرفهم عن التفكير بقوميتهم ووطنيتهم وهم على ما هم عليه من الحل والترحال والعصبية القلبية البالغة الى حد التفاني في استقلال قبائلهم بعضها عن بعض والمحافظة على حريتها وانطلاقها ونفوذ سلطانها ، وكان في ضعف عواطفهم الدينية واختلاف وجهتها بين يهودية ونصرانية ، ومجوسية ، ووثنية متنوعة الاصنام والاوثان والطقوس ما يباعد بين أخيلتهم وافكارهم من هذه الناحية اذ ليس ثمة من مبدأ شامل تجتمع عليه او من عقيدة عامة تتحد بها ، ولذا صح للمنصفين ان يعتبروا شعر الحماسة والمفاخر والمنافرة والمدح والرثاء والحكم والوصف والغزل والبث والشكوى الى معبوداتهم وأحبابهم أقرب صورة لعواطفهم واصدق مرآة لحياتهم من شعر القصص والملاحم بالنسبة لحياة غيرهم من الشعوب وبالنسبة لعواطف سواهم من الامم التي اعتمدت على هذا النوع من الشعر في تمثيل حياتها وعواطفها .

واما حالهم بعد الاسلام فلقد كانوا لنفوذ سلطانهم وسيطرة لغتهم وآدابهم وتعاليمهم على أمم المشرق والمغرب مطمئنين كل الاطمئنان على لغتهم وآدابهم وقوميتهم في ظل القرآن وهو وليد أرضهم وسمائهم ورمز وحدتهم وقوتهم ، به آثرهم الله عن بقية الامم ، وبه مكنهم في الارض وكرم لسانهم وصان تقاليدهم

واحكم تثقيفهم وأوضح مبادئهم الانسانية وأغنى لغتهم وآدابهم وعقولهم من الاستظلال بظل الخرافات والأساطير التي تقوم عليها الملاحم والقصص ، وتتوسل بها الشعوب المستضعفة لبعث موتاها. ولذا رايتهم — عندما انتقضت بعض الامم الاسلامية وعندما طغت النزعات الشعوبية في بلادهم واستمرت المنافسة بينهم وبين غيرهم من الشعوب حتى تغلغل الشك ولم يبق لتلك التعاليم الانسانية والمبادىء النزيهة العامة من اثر على النفوس — يتوجهون للقصص يصورون به أحلامهم في العيش وامانيهم في الحياة ويلونون بتهاويله بعض مفاخرهم القومية وخصائصهم الجنسية ، فأكثروا من التوسع في الروايات كقصص (الجمهرة) لعمر بن شبه وكقصة حرب البسوس ، وقصة بكر وتغلب بني وائل ، وقصة بني شيبان مع كسرى الى ما قد أضافوه لالف ليلة وليلة من القصص الممتع الى ما وضعوه من الاسمار وقصص الحماسة والمغامرة في الحياة كقصة عنترة وقصة ابي زيد ، وقصة الملك سيف وقصة الزير سالم ، وحمزة البهلوان ، الى كثير من امثالها مما يدل دلالة واضحة على استعداد العرب للقصص وعلى فهمهم ومعالجتهم لها: ولكن على الوجه الذي ينبغي لهم آن ذاك او على الوجه الذي يفرضه ناموس التدرج من البداية الى النهاية لا على الوجه الذي يتطلبه تطور الفن القصصي اليوم ، فان ذلك ضرب من المحال والتكليف بما يعدو طاقة الانسان .

ولعلهم — والعصر عصر انحطاط اللغة والبيان — انما آثروا

الاساليب النثرية في قصصهم لان هذه الاساليب المرسلة أقرب الى طبيعة الحديث والحوار وأشد صلة بمنطق الحوادث ومجاري الحياة الشعبية من اساليب الشعر العربي وقيوده المتأنقة في توسمها ومراعاتها لتآلف الانغام والخصائص الموسيقية . (١)

(١) سنة ١٩٣٩

خواطر في النقد والادب

•

اقوى الآداب والشخصيات اقربها الى النفس واثبتها على الانتقاد

•

المثل الاعلى في كل فن ، هو مطمح الباحث المخلص وميزان الناقد النزيه ، وبمقدار البعد والقرب منه يكون الكمال والنقص في الاثر الفني ، وتكون القوة والضعف في تأثيره على الوجدان والشعور

•

ان من يخلص لمثله العليا لا ينكر على النقد حريته وتماديه

•

لا يستطيع الناقد النزيه ان ينصف الاثر الفني اذا لم يحدد موضوعه والغاية منه واذا لم يستغرق ويتكيف — وهو يدرسه — مع نفس صاحبه ثم يستشعر العوامل والظروف التي كان لها أثرها

في توجيه ملكاته الفنية وكان لها حكمها في اخراج ذلك الاثر على صورته المعينة ووضعه الخاص

●

كل فكرة وكل نظرية لا تلتئم مع واقع الحياة وطبيعة النفس هي فكرة خاطئة مهما بالغ العلماء في تأييدها والاحتفاء بها فان واقع الحياة وطبيعة النفوس المعتدلة هو المقياس الصحيح لكل فكرة مشبوهة ولكل خيال شاذ وكل نحلة مصطنعة

●

ان من يخونه الفهم لا يسعفه العلم ومن يخطئه الذوق لا يواتيه الفن

●

ما أبلغ السكوت عن معنى يلج فيه المراؤون وفي نادٍ يمرح فيه الثرثارون

●

انما يضلل الاذكياء عن تفهم الحقيقة والواقع — في درس الحياة والنفس والمجتمع — اعتقادهم انهم يفكرون في حين انهم يتخيلون (١)

●

(١) نشرت في العرفان سنة ٩٣٨ : ثم قرأت ما يصور هذا المعني ص ٢٦ من كتاب (منهج البحث) المطبوع سنة ٩٤٦ :

ان ما توحيه المآزق العاطفية لا يجوز بوجه من الوجوه ان يتخذ مقياساً للحكم على طبيعة الاشخاص وعقائدهم ولا طريقاً للعلم والمعرفة بالحقائق الثابتة .. والا أضلنا عن الصواب وحال بيننا وبين فهم الحياة والناس على ما يجب ان نفهمه ، لان المرء في حال واحدة غيره في سائر الاحوال

●

ما بين تلاحي الحب والبغض تتعرّى الحقائق وتلطف الاذواق والعقول وتتسق الثقافة الحرة

●

انما نخلص لانفسنا حين نحاسبها بما نحاسب به الاخصام ، وانما ننصف اخصامنا حينما نفرض لهم ما نفترضه لانفسنا عند العثرة والخطأ من ظروف موجبة وعوامل قاهرة ، ومقاييس خاطئة

●

انما يمتاز النبيل بالخصومة الشريفة والتضحية الخالصة

●

إن النقد النزيه انما يتحرى الحسن والصحيح في عرف الناس ليعرب عن قبحه وفساده في حد ذاته ، او القبيح والفاسد في عرفهم ليبدي حسنه وصحته في حد ذاته ، لا ما اتفق العرف والواقع على حسنه وصحته او قبحه وفساده فان ذلك لفي غنى عن النقد

وانما الناقد الفذ من يشرح لنا علل الحسن والقبح وعوامل الصحة والفساد فيما ينتقده ويفنده حتى يصبح الحسن قبيحاً في نظرنا والقبيح حسناً لا من يقول لنا هذا حسن او هذا قبيح ثم ينطلق مع غايته وهواه او يقف كالمترفع عن الجواب اغتراراً بسمو مكانته !! فليس ذلك — في عرف المنصفين — الا ضرباً من التهويل والتهويش الفارغ

●

كما ان المرء لا يستطيع ان يتذوق ما يجهله ويبتعد عن ذهنه كذلك الاديب لا يمكن ان يتذوق ما لم يمارسه في ثقافته ونشأته من أساليب والفاظ ومعان ، واخيلة او ان يعتد بصواب حكمه لها او عليها . واذن فمن ظلم الاقدار ان يتحكم ادباؤنا المتقدمون بالاساليب والالفاظ والمعاني العصرية التي لم يمارسوها في ثقافتهم ولم يألفوها في نشأتهم ، او ان يتحكم المتجددون منا بآثار المتقدمين اذا لم يتهيأوا لها بثقافتهم ويحسبوا الحساب لعوامل نشأتهم وظروفهم التي كان لها اثرها في تفاوت الاتجاه والتفكير والذوق الفني بين الطرفين .

●

يخجلني اثنان : شاعر يعرض علي القطعة من الشعر ليرى رأيي بها — وانا مشترك اللب مشرد الحواس — فلا اظفر بوسيلة الى تذون الجمال في فنه وتقدير الحق في منطقه . وشاعر يستعمل جميع

قواه الفنية ليرقصني على أنغام شعره فلا أجد من نفسي غير ابتسامة هادئة تقوم مقام دمعة المتوجع وزفرة المتفجع !!

●

آفة الادب في بلادنا تراوحه بين من يغلو في اطلاعه ودرسه الى حدٍ يستهين معه بفطرته ويهمل احساسه وتفكيره ، ويبتعد في ادبه ومنطقه عن ان يستوحي البيئة والحياة والنفس وظروفها ، وبين من يعتد بفطرته واحساسه الى حيث يستخف بالكتاب والمدرسة وما قد توحيه الى اللبيب من طريف المعاني والصور التي لا يتسق لبيئته وظروفه مهما دقت ان تستشف عن مثلها او تسموا الى عوالمهــــا

●

لا احسب ان خلود الاشياء دليل على جمالها وصحتها في حد ذاتها ، وربما كان خلودها بنسبتها الى المشهور من الآثار ، والشائع من الحوادث والنابه من الشخصيات والا لما خلدت تلك التوافــه من الاقوال الزائفة والنظريات الخاطئة لاتصالها بسيرة الخالدين من ابطال الحياة وعلاقتها بالمشكل الدقيق من موضوعات العلـــوم والفنون ، ولما ضاع كثير من الحقائق العلمية والروائع الفنيــة لتفرد الخاملين بتقريرها وابتكارها

وعلى ذلك فكما يجوز ان يخلد الحصيف بحصافته يجـوز ان

يخلد السخيف بسخافته اذا تهيأ له من شيوع اسمه وخصائصه ما قد تهيأ للنابغ الحصيف ، وما سحبان وائل بأخلد اسما من (باقل) في تاريخ الاعلام ؟؟

●

ليس من شأن الادب العالي بفنه وروحه وغايته ان يكون سجلا تاريخيا لتفصيل كل جزئية من جزئيات الحياة ، ليسوغ لنا ان نسأل الاديب — في أدبه — عن نوع مأكله وملبسه ومسكنه او كيف نشأ او كيف عاش كما يريد المتطرفون في تجوزهم وتقليدهم من ادباء اليوم

وانما الادب — في اسمى مراحله واغراضه — مرآة صافية لتطور شعور الاديب وتفكيره العالي عندما تتكامل ثقافته وتنضج مواهبه ، او صورة دقيقة الاشارة والتلميح للظروف الاستثنائية التي توجه ملكاته الفنية وتدفعه قسراً الى البث والتعبير عما تفيض به النفس من شعور وعواطف بلغة موسيقية الانغام جميلة الاداء بليغة التأثير :

الشعر لمح تكفي اشارته   وليس بالهذر طوّلت خطبه

ولا يقتضيه بعد هذا ان يخالف ظروفه وعواطفه ويصطنع التأثر بكل شيء مرّ به او التنبوء بكل ما ينتهي اليه الفكر والشعور من موضوعات وصور واساليب في العصور المتأخرة عن عصره وجيله

ان اللغة في كل أمة اصح مقياس وأصدق صورة لحياتها الفكرية ، والعاطفية ، والاجتماعية من التاريخ والادب والفن ، لان التاريخ قد تعبث بـه الاهواء والاغراض وتتحكم به الدكتاتوريات ولان الادب والفن يصعب او يستحيل ان تقوم لهما قائمة على غير الخيال والعاطفة ، وهما بطبيعتهما لا ينسجمان – غالباً – مع جميع شؤون الحياة الفكرية والعملية ، ليعبرا عنها بخلاف اللغـة – وهي لسان التـاجر والزارع والصـانع كما هي لسان العـالم والاديب ولسان السياسي والفيلسوف والطبيب والمهندس – فانها بذلك اشبه بالمتحف لكل طور من اطوار الحياة فيه اثر ، ولكل منحى مـن مناحي الفكر والعاطفة والنفس ، فيه صورة ماثلة في الفاظها وتراكيبها

●

لا اقليمية في الافـكار الصحيحة والصور الجميـلة واللغـة الفصحى والاسلوب الرفيع مهما تراوحت الجماعات والازمنة والامكنة باصحابها وعواملها وموضوعاتها ، ليكون الادب الذي تـكامل وامتاز بصحيح افـكاره وبديع صوره وبليغ اسلوبه ولغته – ولو كان خاصاً بموضوعه وزمانه ومكانه – عالمياً بطبيعته اذا كتب له الشيوع والانتقال من لغة الى لغة

●

وانما تتمثل الاقليمية الادبية في هذا الذي يسف بسذاجة منطقه وخياله واسلوبه ، ولا يرتفع بتصوير الخصائص المحلية والعرف العـام عن مستوى الافـكار السطحية والتراكيب المبتذلة واللغات العامية

التي تتفاوت بتفاوت الازمنة والامكنة والجماعات

●

لكل ذي بصيرة وذوق في كل مظهر من مظاهر الجمال وفي كل حالة من حالات النفس وفي كل ناحية من نواحي الحياة أمنية غالية تثير اخيلته : او عقيدة راسخة تلهب عواطفه او ضرورة حافزه تستدرج قلبه ولسانه الى تصوير ما تجيش به النفس ويضطرب الفكر والخيال : فاذا لم يواته الفن ويسعفه القدر في تصوير ما يطمح اليه من وحي الحرية والجمال على خير ما يرضي طموحه ومثله الاعلى .. عمد الى ابرع ما قيل في مثل هذه النواحي وفي مثل هذه الحالات والمظاهر ، فاختار منه ما يمثل عاطفته بارفع درجاتها او فكرته بابلغ حججها او ذوقه بأسمى ما يفتن به من رؤى وأحاسيس او ما يكيّف هذه الغرائز والملكات جميعها بخير ما يمكن ان تكيّف به : ولذا كان المختار بوجه عام أدل على عقلية صاحبه وذوقه وجوّه الطبيعي _ لدى الاختيار _ مما قد بنشئه نظما ونثراً ، لانه يمثل _ في الغالب _ ما قد ضاق بتحديده من خيال او بتصويره من شعور او بتبريره من فكر او بتمثيله من جمال الطبيعة والنفس

●

واذا كان الادب كالكنز لا يحتفظ في خزانته الا بالطريف الغالي من صور الحياة ، وحوادث الايام وخوالج النفوس ، ملتحفاً في

اجمل عبارة واعذب اسلوب وابدع خيال ، وابلغ منطق ، واروع تصوير ، فما الذي يبتغيه ارباب تلكم القصص من هذه الركاكة وهذا الابتذال في الاسلوب والموضوع او بهذه التوافه من الصور المعادة والنوابي من الاحاديث المكررة ؟! وان في سمر القرويات من العجائز وفي حكاياتهن التي يقصونها على ابنائهن واحفادهن بلغة عامية واسلوب طبيعي خالص من شوائب الحذلقة والتصنع ، ما هو ابلغ تأثيراً على الحس واقرب صلة بالنفس وبالحياة من هذا القصص الذي يتكلفه شبابنا المثقفون ويتعصب له ادباؤنا المتجددون ويقصرون اكثر جهودهم على اصطناعه وترويض اصوله ، ثم لا يتحفونا منه الا بما سف لغة واسلوبا ، واضطرب منطقاً وخيالا ، وساء نتيجة ومغزى ، ثم سوّف على القارىء وقته وعلى الباحث فائدته ، وعلى الفن متعته وعلى الادب قيمته وامتيازه في رصانة الاسلوب وطرافة الخيال وصدق العاطفة وروائع اللفظ والمعنى ، كأن الحياة لما تزل بعدُ في حاجة الى تعزيز ما فيها من لغو ، وفضول ، وسخافة ؟!

●

ثم اذا كانت العاطفة عنصراً او شرطاً من شروط الفن الصحيح والادب العالي ، فما حكم هذا القصص الذي لا يمت بلونه وموضوعه ولا بحوادثه وابطاله الى شيء من حياة المؤلفين وملابساتهم وظروف بيئتهم كما هو الشأن في اكثر قصصنا الجديدة ؟؟ وما عسى ان يكون محله من الادب ؟

●

واذا كان الغرض من الادب – في اقصى مراحله – احداث اللذة والمتعة النفسية ، الا يكون هذا النوع من القصص الذي تفيض به اقلام ناشئتنا الادبية وتغص به هوامش الصحف اللبنانية بعيداً بنتائجه واثره عن الادب والفن الصحيح وعن حاجة الحياة والنفس المرهفة في ذوقها وتفكيرها واختيارها ؟

●

ما اكثر المثقفين والادباء الذين يحسنون التحدث عما يدرسونه من النظريات الغريبة ، ويجيدون التمثيل لما يمارسونه من الاساليب المألوفة . وأقل من يحسنون الانشاء والابداع في بيانهم ويمثلون الاستقلال والمرونة بافكارهم وأخيلتهم

●

انما الثقافة الصحيحة هي التي تجعلنا نفكر مستقلين بافكارنا . ونعمل مخلصين لوجداننا ، ونستنبط مطمئنين لاختبارنا وبرهاننا لا تلك التي تنقل لنا الافكار والاخيلة وتفرض علينا النظريات والانظمة وتتركنا اشلاء بين حيرة الشك وعمى التقليد : وانما المثقف من تأمل واضطلع من الثقافة بجميع ذلك

●

ان حصافة العقل وطلاقة اللسان والثقافة العالية – اذا لم تعزز

بضمير حي يسدد خطاها نحو الخير العام – لهي اخبث آفـــة في جسم المجتمع وقلب الانسانية :

●

ان المعرفة ملاك الوحي والابداع في ريشة الفنان واداة الختل والتضليل في منطق الساسة :

●

ان الثرثرة والفضول او الملق والتمويه قوة يستطيع بها المتصلف الجريء ان يحتل محل العالم الموثوق والاديب الماهر ، والسياسي المطاع من الامة المتأخرة في عقليتها وثقافتها :

●

من ابلغ مظاهر الضعف اصطناع القوة

●

ان الشهرة تنبّه الرأي العام الى الدقة في الملاحظة على ذويها ، وتكثر من التكاليف والواجبات على مدعيها الى ان ينوء بهـــا العاجز ويفتضح امر الدجال :

●

الغرور يكبّر المرء في عين نفسه ويصغّره في عيون الناس :

●

اثقل شيء على المغرور ان يسلم باخطائه وان يعترف بفضائل غيره

●

ان من لا يستطيع ان يستفيد ويستنتج من اي كتاب نظريات هامة لا يستطيع ان يستفيد او يستنتج من كل شيء درسا ، لان الاستنتاج انما يكون على حسب الثقافة ولذا تراه يختلف باختلاف الكتاب والمدرسة فان المؤرخ او المتشرع ـ مثلا ـ لا يمكنه ان يستنتج من ظواهر الكون ما يمكن ان يستنتجه الشاعر او الفيلسوف وان الطبيب والعالم الطبيعي لا يسعه ان يستنتج ما يستنتجه الرياضي والمهندس ، وهكذا يدلنا تفاوت الاستنتاج بتفاوت الثقافات على ما للكتاب والمدرسة من اثر في تقويم الحياة وتوجيه الافكار .

●

لا تستقيم العاطفة بدون ايمان ولا يستقيم الايمان بدون عقل يوضحه ومنطق يسدده .

الشك يخمد العواطف النبيلة والايمان يذكيها .

انما يولد الخوف من الشك فاعطني ايماناً وخذ مني اقداماً .

الاقدام مع الايمان شجاعة وبدونه جنون وبله .

الشك زناد الثورة الفكرية

غاية الشك اليقين

الشك رائد الحقيقة ومصباح الفكر وجرس اليقظة .

●

ان الثري الموسر لشغله وانغماسه بما حوله من ملذات الحيـــاة ومتعها السارة ، قلما ينصرف بتفكيره وشعوره الى عالم الاحلام والامنيات او يستفز عواطفه مثل اعلى بخلاف الفقير فان عدمـــه وضيقه بما حوله من حقائق البؤس يلجئه الى التوسل بالاخيلة والاحلام والاماني البرّاقه ليرفه عن نفسه بما تتاح اليه من امثله عليــــا ، لذلك كان نبوغ المثري في عالم الفنون والعلوم ادل على العبقرية من نبوغ الفقير المعدم .

●

اذا كان الادب ملهاة وتسلية ومتعة على مـا يقال فيجب ان يحتل الشعر الفكاهي ـ هذا الذي يشف عن ابتهاج النفس ودماثتها وخذقها ويمثل في جملته عبث الحياة وبشرها وانطلاقها ــ اسمى محلة منه لانه بذلك امتع للنفس واوثق صلة بالروح والخيال من هذا الادب الذي يتكلف البكاء والكآبة ، ويصطنع الثورة والتمرد ، او يتملق الجمهور بالمواعظ البليدة والفلسفة المنتحلة ، والدعاوى الطويلة العريضة .

الفن للفن !

يكثر الجدل اليوم حول مفاد هذه الكلمة ولست بصدد الدفاع عن مدى صحته وشموله وكونه في حقيقة الامر لا يختلف عن معنى قولهم (الادب للحياة) حين يراد من لفظ الحياة معنـاه الصحيح الشامل : وانما جل قصدي هنا ان اوضح مرادي الخاص مـن هذه الجملة ـ الفن للفن ـ في بيان خطبة الادب العاملي وفيما تقدم من تحديدي لرسالة الشاعر ، وهو ان يكون الشعر في حد ذاته غاية لا وسيلة كما يتخذه بعض المشعوذين والمتزلفين من متأدبينا .

ثم على فرض ان نتجاوز به هذه الحدود الى ما يذهب اليـه جل قادة الفكر وارباب الفنون الجميلة : مـن ان يكون في الفن والشعر متسع لجميع ألوان الحياة ولجميع مذاهبها المختلفة بما فيها من عبث وجد ، واعتدال وشذوذ ، وحلاوة ومرارة ، ومـن ان يباح للشاعر ـ من حيث هو شاعر ـ ان يصوّر في بيانه كل مـا يخطر على باله من الخواطر الشعرية ولو انها كانت بطبيعتها نابية عن عرف

البيئة ومألوف العادات والانظمة الاجتماعية : فاننا لا نبيح لانفسنا امثال ذلك في الاساليب الجدية المغرضة ، ولئن اجزناه فانما نجيزه للضرورة وفي المواقف الفكاهية البريئة كهذا الذي يستشعره القارىء من هذه القصائد : الأنف العابث ! صلح ألوعك يا ريس ! بيضة رأس السنة ! ابتهاج ومداعبة ! التي اقدم بعضها للقراء مثلا شارحاً وأنموذجاً موضحاً لحسن النية والقصد من قولنا : الفن للفن

الانف العابث؟

من رسائلي لاحد الاصدقاء النابهين الذين خصتهم الطبيعة بأنوف كبيره كانت محنة لهم في دعابهم ولطفهم ، جواباً على قصيدة مضطربة تند ّ عن مستوى علمه وأدبه وتوحي الى كل واثق من رحابة صدره ودماثه خلقه بمثل هذا الخيال العابث المتمرد على كل ما يقضي به العرف من مراسيم المجاملة والاحترام المتكلّف الجاف الذي يذهب برونق النكت الشعرية ويقضي على مفعولها ويقف سداً في طريقها الملهم الذي هيأته المناسبات والظروف الخاصة :

•

مولاي هب لي اثم أقواليه والطف بما تنكر من حاليه

ولا تراقب ضالعاتي وقد طافت لدى شعرك احلاميه

وطاف منه غب انشاده مجلجلٌ ثبّط إلهاميه

ينسابُ فيه من أمالي المجون ما شذّ حتى مخرج القافيه

حيث توالت طلقةً طلقـــةً ... قاصفةً هادئـــةً خابيــه
يضطربُ الاحساس من وقعها ... ومن غواشي ريحها الجافيه
وتغرق الابطال من لحنهـا ... وان بدت مضحكة واهيــه
قد مثلت شعرك في كنهه ... او هي عنه نسخة ثانيــه
يأنف منها كل أنفٍ سوى ... ادكن في وجهك كالرابيه
تعاور الذبـــان اطرافــه ... وصدّ عنه النفحة الذاكيه
وطوحت بالنور من حوله ... شعافه الشامخة الضافيــه
بحيث لا يبصر مــا دون ... الا كما ابصر اوهاميــه
قد حال حسن الكون في ظله ... الى مراءٍ كزةٍ ناتية ..
وكاد ان يصلح عذرا لمـا ... ارسلت من امثلةٍ (واطيه) (١)
أيظفر الشاعرُ من مثـله ... بصورة مشرقةٍ زاهية . ؟
أم كيف تزكو آبدات الرؤى ... من وحي هذي الدمنة الباليه؟

●

الله ؟ كم عانيتُ من هوله ... وكم دهتني فيه من داهيه ؟
وكم صرفت الفكر عن وصفه ... للكاس والندمان والساقيه؟
لكنما عاثرُ جدي قضـى ... ان يستبدً اليوم في شانيه
حتى كأني منـــه في معزلٍ ... عن لهو اخواني وخلانيه
وكيف ألهو وبأشباحـــه ... تكاد ان تعثر اقداميه ؟!

---

(١) كلمة واطيه . وواطىء : هما كا لازمة في كلام الشيخ المخاطب بهذة القصيدة: فكل كلمة وكل حالة وكل روح لا تنسجم مع طبعه وميوله كان يستقبلها بقوله

كأنما حاولت أثماً وقد أراد فيها الله إرهابيه

●

الا خزاه الله من صاحب كان مدار الضربة القاضيه
وطّأ للعثرة أكنافها ومهد الاسباب للهاويه
وشق للسمار في تيههم طريق عبث خطر الناحيه
جار على لطفك في حكمه ولم يقدّر ذاتك الساميه
وجرّاء (الواطىء) مثلي على مثلك حتى بزّه العافيه(٢)

●

فهل أراني اليوم في ذمّة خرجت عن محكم آدابيه
أم ان ذمّي آية للوفا يكبر فيها الشيخ اخلاصيه؟
ويستسيغ الفن اسلوبها ويربت الفنان اكتافيه
او يفقاء الحصرم في عين من تنكروا خبثاً لاشعاريه

●

ما حيلتي بالهجر من وصفه وهو الذي سمم أفكاريه
منبهاً للجد في لهونا مسخراً للعبث وجدانيه
معبّراً في الغي عن حجتي مبرراً في اللغو إسرافيه

---

(٢) (واطئه) و كل قول و كل شعور و كل عمل لا يلتأم مع ذوقه وشعوره كان يستقبله بكلمة (واطىء)

ألم يكن زلزل ايماننــا بالحسن يغشي القمم العاليه
ألم يكن اغمض عيني حياً وقد رأتـه عورة باديـه
ألم يكن شوه آدابنـا يبث هذي الصور النابيـه
وهو الذي ألهم منك القفى للغث من شعر ومن قافيـه
واضطرني ان احتذي حذوكم فحشاً بفحش ولغىً هاذيه
كأنما (الهوجل) من وحيه اثقل بالمنكر الفاظية (١)

(١) الهوجل احد شياطين الشعر في الاساطير العربية او الذي يوحي بالمعاني الشريرة

قراءة الشعر والادب [1]

.. ثم توضيحا لما اشرت اليه في كلمة الفن للفن : وفي رسالة الشاعر انقل هنا بعض ما ترجمه الاستاذ زكي نجيب محمود بين ص ٣٤ ــ ٤٥ من كتاب (فنون الادب) المطبوع في مصر سنة ١٩٤٥ : ليستضيء المضطربون ــ في تحديد الاتجاهات الادبية وفي تفسير الواجب الفني ــ بما يقرره اساتذة الادب في جامعات الغرب :

●

سر الفن في قراءة الادب واستساغته متوقف على شيء واحد ، هو فن استخراج المعاني من الفاظها ، بحيث تخرج منها كل مخزونها .

---

(١) الشعر - هنا - كلام يراد به قبل كل شيء ان يكون لقارئه لذة ومتاعا ، وسواء بعد ذلك اكان هذا الكلام نثراً كما ترى في القصص والمقالات والروايات المسرحية ام كان الكلام نظما كما ترى في القصائد الغنائية وشعر الملاحم

وقراءة القصيدة من الشعر ليست عملية نقدية عقليـة ، فلك ان تعمل فيها عقلك ونقدك على ان يكون لذلك المحل الثاني . ولئن جاز لك ان تقرأ القصيدة لتنقدها بعقلك بعد ان تقرأها لتحس مـا فيها مـن مشاعر ، فلا يجوز لك قطعاً ان تقرأ قصيدة ما لتحكم عـلى آراء الشاعر بالصواب او بالخطأ إن اردت القصيدة لفنهـا ، فليس الشاعر فيلسوفاً يبسط رأيا يحتمل الصدق - والكذب ، لكنه شاعر يحس وله كل الحق في ان يحس كما يشاء . قراءة الشعر عمل فيه شيء مـن الخلق والابداع ، فيه هضم لمـا تقرأ ، فأنت لم تقرأ الشعر اذا لم تتمثل ما فيه من مشاعر وتجارب ، اذ القصيدة من الشعر تعبير عن (تجربة مارسها الشاعر) هي سلسلة من المشاعر والمناظر والافكار تتولد في ذهن الشاعر عن موقف بعينه ، ثم تودع في قوارير الالفاظ لتبقى ابد الدهر متعة لمن شاء ان يفتح هذه القوارير ويستخرج ما استودعته ، فلكي تقرأ القصيدة من الشعر لا بد لك ان تتناول هذه القوارير اللفظية واحدة بعد واحدة ، فتفرغها في شعورك وتتمثل ما افرغته في دمائك ، وليس من اليسير ان تبعث الى الحياة تجربـة الشاعر التي مارسها ومر خلالها وعاشها وهو ينشىء قصيدته ، بان تعيد في نفسك كل ما تولاه من حالات نفسية ومشاعر ، وكل ما طاف بذهنه من مناظر وخواطر ، هو لا شك مجهود عظيم ان تفعل ذلك ، لكنه مجهود لا يقوم به العقل وانمـا يؤديه الخيال . فاقرأ القصيدة بخيك لتتمرس بتجربتها اولا ، ثم اقرأها بعد ذلك — إن شئت — قراءة النقد والتمحيص وقراءة النقد نوعان : نقـد ادبي يسأل : الى اي حد أجاد الشاعر في قصيدته ؟ ومعنى السؤال : هل

عبّرت الفاظ القصيدة عن تجربة الشاعر تعبيراً حيا ناصعاً أمكننا ان نعيد الصور الى اذهاننا حية ناصعة كما مرت به ؟ وفي هـذا النقد الادبي لا يجوز ان تبحث اصدق الشاعر في حكم العقل أم كذب ؟ ولا يجوز كذلك ان تسأل احافظ الشاعر عـلى قوانين الاخلاق واوضاع العرف أم خرج عليها فالبحث في صدق التجربة او كذبها ، وفي المحافظة على قواعد الاخلاق او الخروج عليها ليس مـن النقد الادبي في شيء ، وإن شئت بحثا كهذا فذلك هو الضرب الثاني من ضروب النقد ، فليس ما يمنع ان تعود فتقرأ القصيدة للمرة الثالثة لتحكم على ما ورد فيها - كما تحكم على ما يصادفنا مـن تجارب الحياة - بالخطأ او الصواب ، بالفضيلة او بالرذيلة ، بل لك ان تحكم عليها من أية ناحية شئت اجتماعية او سياسية او خلقية او دينيـة ، غير ان ذلك شيء والنقد الادبي شيء آخر ، ولا ينبغي ان تخلط بينهما كما يخلط لسوء الحظ معظم النقاد .

وليس شرطا لازماً ان يصور لك الشاعر في قصيدته تجربة فيها المشاعر سامية والخواطر عاليـة والحياة فاضلة والآمال كبار ، بل ربما صور لك الشاعر في تجربته خواطر سفاك للدماء ، ومشاعر شرير خبيث يكيد للناس ويتربص بهم الدوائر . فسواء لدينـا نحن قراء الشعر أصورت القصيدة ملكاً رحيما او شيطانا رجيما ما دامت الصورة ناصعة معبرة تتيح للقارىء ان يتقمص مشاعرها كأنه انقلب ساعـة القراءة ذلك الملك الرحيم بعينه او هذا الشيطان الرجيم . نعم يصح لنا ان نؤثر القصيدة التي تعلو بالنفس عـلى زميلتها التي تصور الشر

إن تساوت القصيدتان في جودة التصوير ولكننا لا نبيح هذا التفضيل بحال من الاحوال لو اجادت الثانية اكثر مما اجادت الاولى ، اذ القصيدة الجيدة من الوجهة الفنية ـ حتى وان عالجت موضوعاً تأباه الاخلاق ـ خير الف مرة من القصيدة الرديئة من الوجهة الفنية وان عالجت الفضيلة والاخلاق الكريمة ، وانك لتجد من قادة النقد الاوروبي من يزعم ـ وربما صدقوا فيما يزعمون ـ ان الجودة الفنية في القصيدة أعظم شأناً واكثر خطراً ـ حتى من الناحية الخلقية نفسها ـ من موضوع القصيدة أفضيلة هو أم رذيلة وهذا رأي اخذ به « شيلي » الشاعر الناقد الانكليزي الذي توشك ألا تجد في تاريخ العظماء اصفى منه عقلاً ، اخذ به في مقالة طويلة كتبها دفاعاً عن الشعر هي من اعظم ما جادت به قريحة ، وجرت به يراعة في الدفاع عن الشعر وهو في هذه المقالة الرائعة يحتج بان كافة الشرور .. وما يصيب المجتمع منها بوجه اخص انما نشأت عن سبب رئيسي واحد وليس ذلك السبب في اخلاقنا ولا هو في عقولنا ولا في نظامنا الاقتصادي .

ان منازل الفقراء الوبيئة قائمة بيننا ، لا لان الكثرة الغالبة من الناس يجهلون قيامها ولا لان تلك الكثرة تود ان تبقى المنازل الوبيئة ساعة واحدة انما قامت تلك المنازل بيننا وستظل قائمة ، لان من لا يسكنها لا يشارك ساكنيها الشعور مشاركة وجدانية كاملة ، مَن هم خارج بيوت الفقراء القذرة الوبيئة لا « يشعرون » بما يشعر به من هم داخل تلك البيوت من فقراء ولذلك استحال عليهم ان

يحسوا مثل آلامهم احساساً حقيقيا ، فلأن تشارك غـيرك وجدانه مشاركة كاملة وتشعر بشعوره شعوراً حياً قويا ، يقتضيك لا ان تقف مثل موقفه فحسب بل ان تصب نفسك صباً في إهابه لتجري فيك دماؤه وتسري فيك مشاعره وآلامه ولئن استحال ذلك بالصورة المادية فهو ممكن بقوة الخيال ، فكلما ازداد الانسان قدرة عـلى ان يضع نفسه بخياله في جلد غيره ليشعر مثل شعوره كان اقرب الى المشاركة الوجدانية الكاملة . واذاً فالمشاركة الوجدانية ــ التي هي ملاط المجتمع وبغيرها لا يكون اصلاح ــ تعتمد قبل كل شيء على قوة الخيال . ومهمـــة الشعر الاولى ــ بل والوحيدة ــ هي ان يخاطب في الانسان خياله ، الشعر لا يخاطب القوة العاقلة بـل يتجه فينا الى الملكة التي تتقبل الفكر والشعور في آن معــاً ــ ملكة الخيال . الشعر يقوي فينا تلك الملكة التي تمكننا ان نصير ــ ولو مدى لحظة قصيرة ــ اشخاصاً غير انفسنا . وسواء أصرنا بفعل الشعر وقوة الخيـال ملائكة او شياطين فحسبنـــا ان تكون لنـــا هـــذه القدرة التي ننقلب بها هـــذا الشخص او ذاك ساعـة من زمان لنشعر بشعوره فنألم لألمه او نسر لسروره . لو أكسبك الشعر هذه القدرة العجيبة فقد ادى مهمته الكبرى ولا عدة بعد ذلك اكانت وسيلته الى هذه الغاية ان يلبسك ثوب « إياجو » القاتل او « دزدمونا » الملائكية الرقيقة . فليضعك الشعر في إهاب من شاء من صنوف البشر ان كانت النهاية ان تظفر بالقدرة عـلى مشاركة غيرك في وجدانه . ان ما يهمنا مـــن الشعر ان يكون شعراً ولا نزن بجناح بعوضة موضوع الشعر الذي يعالجه ، وانمـــا يهمنا الشعر

لذاته لاننـــا لا نرى وسيلة للاصلاح الخلقي والاجتماعي سوى ان يشعر الفرد بشعور غيره ولا تتحقق تلك الوسيلة الا بقراءة الشعر قراءة صحيحة كقراءة طه حسين لقصيدة المتنبي :

ليالي بعد الظاعنين شكول   طوال وليل العاشقين طويل

فاقرأ تحليلها في كتابه (مع المتنبي) ص ٢٣٦ — ٢٤٧ : الطبعة الثانية .

ما لا بد من قوله

قياماً بواجب الاديب الموهوب الاستاذ (اسماعيل ابراهيم الحسيني) وتقديراً لفضله وجميل صنعه .. أتوجه نحوه باصدق عبائر الشكر والاحترام ، لما قد بذله من وقت في مراجعة فصول هذا الكتاب ـ بكلا جزئيه الاول والثاني ـ ولما اظهره من عناية في نقده وتصحيح جل اخطائه الفنية والمنطقية واللغوية على خير ما يفرضه الاعتداد بالذوق السليم ، والاخلاص لواجب العلم والفن ، والاستجابة لما فطر عليه من رهافة الحس والشعور ، ودقة الفهم والملاحظة ، ونبل الاتجاه والغرض .

٢٤ / ٨ / ١٩٥٥ المؤلف

بعض الصواب والخطأ

●

وقع في هذا الجزء جملة من الاخطاء المطبعية لا يحسن التنبيه اليها مع الاعتماد على فهم القارىء وسليقته وانما تنبه ـ اضطراراً ـ الى ما قد يترتب عليه بعض الالتباس والاضطراب في تذوّق العبارة وتقويم الصورة من الوجهة الفنية والمنطقية:

صفحة	خطأ	صواب
١٨	لوداع	للوداع
١٨	هو من ..	هو من شعر
١٨	المنخل .	المنخل العذب
٢٢	الزيدان	الزيادنة
٤٦	درجت	ضرجت
٤٩	راي	رأيي
٥٠	ثباب	لأثباب

صفحة	خطأ	صواب
٥٣	محاولة	ومحاولة
٦١	وقفوا	وفقوا
٦١	الى هذا	الى روح هذا
٦٨	القطرة	الفطرة
٨٢	فاعتز	فاعتذر
٩٤	القو مه،	القوم معه
١٣٩	شك السهم في صدره	شك السهم صدره
١٥٤	ولي كل	وعلى كل
١٧٨	كنه	لكنه
١٧٩	هل يليق بنا	الصواب بحذفها
١٩٢	بما ويلهمه	وبما يلهمه
٢٢٣	دون	دونه

الفهرس

●

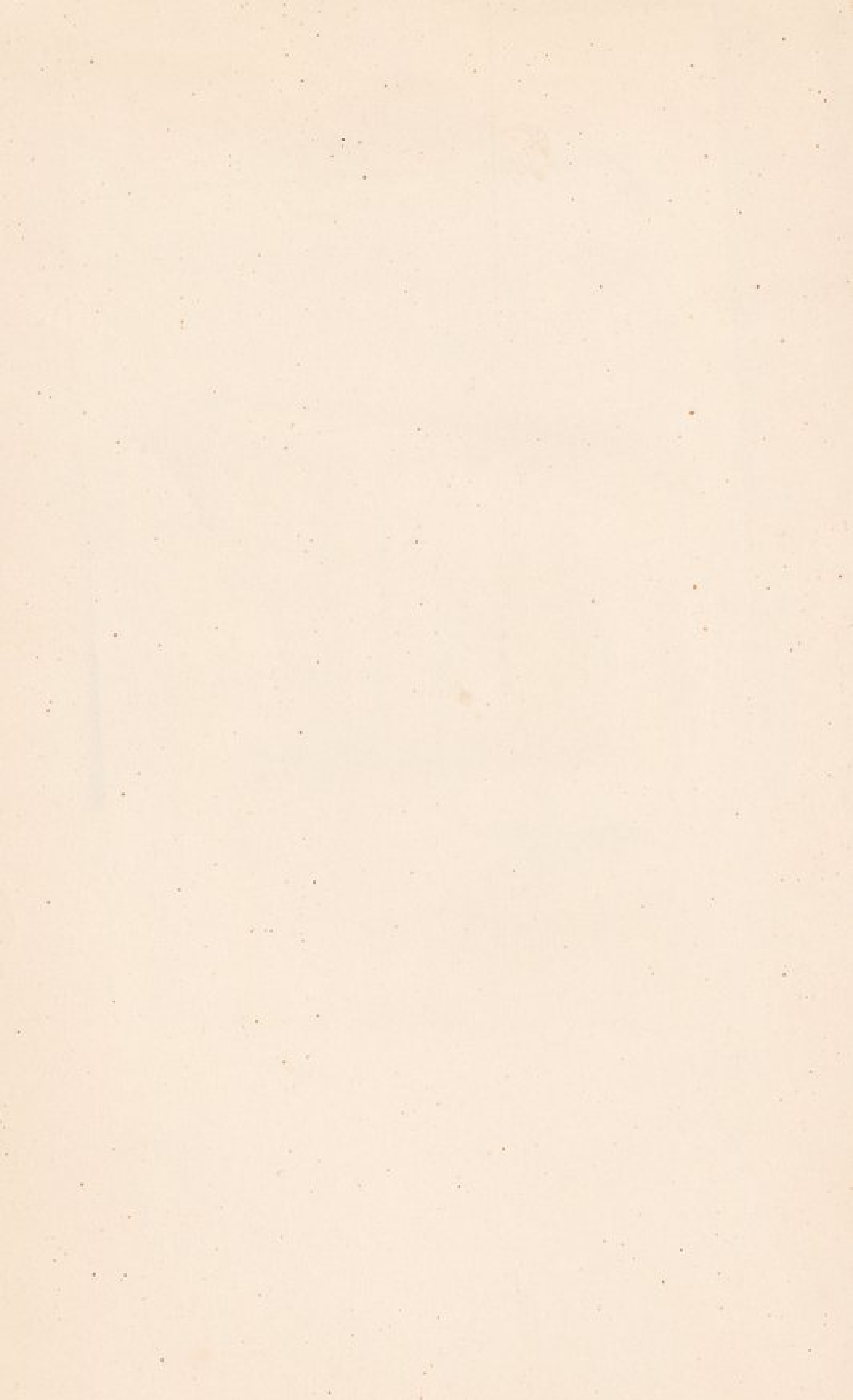
صفحة

صفحة









DATE DUE


AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

